موسوعة
الثقافة التاريخية
والأثرية والحضارية

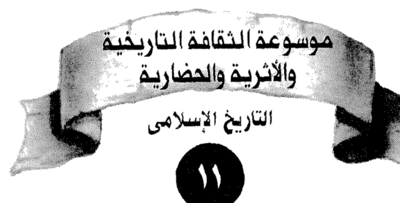


الفتح الإسلامى لمصر



أ.د. حامد زيان





الفتح الإسلامى لمصر
وقصة مكتبة الإسكندرية



النسر رمز الروم على حصن بابليون عند الفتح العربى

تأليف

أ.د. حامد زيان غانم

أستاذ ورئيس قسم التاريخ

كلية الآداب - جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

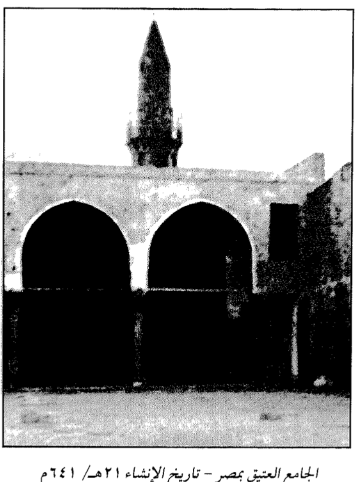
دار الفكر العربى

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

٦ أ شارع جواد حسنى - ت: ٢٣٩٣٠١٦٧

www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com



الجامع العتيق بمصر - تاريخ الإنشاء ٢١هـ/ ٦٤١م

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

الإشراف الفنى
محيى الدين فتحى الشلودى

التصميم والإخراج على الكمبيوتر
ثريا إبراهيم حسين

٩٥٦,٠٣٢ حامد زيدان غانم.
ح أ ف ت الفتح الإسلامى وقصة مكتبة الإسكندرية/ تأليف حامد زيدان غانم . ـ القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٧.
أ-د ٥٢ص: صور؛ ٢٤ سم. - (موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية. التاريخ الإسلامى؛ ١١).
ببليوجرافية: ص ٤٧ - ٥١.
تدمك: ٤ - ٢٠٩٩ - ١٠ - ٩٧٧.
١ - مصر قبل الفتح الإسلامى. ٢ - انتشار الإسلام فى مصر. ٣- انتشار اللغة العربية فى مصر. ٤ - مكتبة الإسكندرية. أ - العنوان. ب - السلسلة.

دار الفكر العربى

رقم الإيداع: ٧٩٣٤ / ٢٠٠٦

تنفيذ وطباعة الكتاب: مطبعة البردى بالعاشر من رمضان

اللجنة الاستشارية

لموسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

جميع المراسلات والاتصالات على العنوان التالى:

دار الفكر العربى

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com



تقديم السلسلة

التاريـخ علم من أَجَلِّ العلوم الإنسانيـة وأعلاها قـدرا وأكثرهـا فائدة. ويتطلب علم التاريخ فـيمن يمارسه التحلى بأمانة الحكم وصـدق الكلمة وبُعْد النظر والقـدرة على الإفـادة من دروس الماضـى لمواجـهة صـعـاب الحـاضـر والاستعداد لما قد يتفتق عنه المستقبل من أخطار وعقبات.

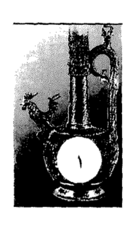
إن الروايات التاريخـية قد تـتشابه فى بعض أجـزائها على مدى الدهـور، ولكن التاريخ لا يمكن أن يعيد نفسه، بمعنى أن تتطابق أحداثه مع بعد المسافة بين حدث وآخر. فالإنسان هو الإنسان بكيانه الجسدى ومشاعره النفسيـة وتطلعاته وطموحاته.. على مر العصور، ولكن الظروف المحيطة به تتغير وتتبدل من عصر لآخر. وغالبا ما يتخذ هذا التغيير مواقف جديدة أو مسيرة مختلفة تسهم فى تحويل نظرة الناس إلى الحياة. وبدراسة التاريخ يمكن الوقوف على ما مر به الإنسان من تجارب وما يمكن أن يكون قد وقع فيه من أخطاء، وكيف يتجنبها فى الحاضر والمستقبل. وهذا ما عبَّر عنه بعض الحكماء بقوله: «من وعى التاريخ فى صدره، أضاف عمرا إلى عمره».

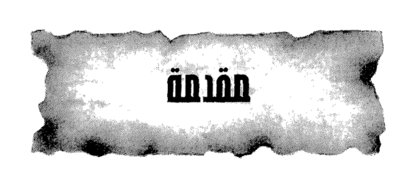
وقد أدرك هذه الحـقيقـة كثير من الـهيئات الثـقافيـة، فجعلوا للتـاريخ حقه من الاهتـمام والرعاية، وحرصوا على رعاية جمعه وحصاده وأحلوه فى مكانه اللائق.

وتأتى مؤسسة **دار الفكر العربى** التى أسسهـا الأستاذ/ **محمد محمود الخضرى**، التى تنهض بدور ملموس فى مجـال خدمة الثقافة العربيـة. والتى وضعت مشروعا للثقافـة التاريخية، واستعانت فى التخطيط لـهذا المشروع بعدد من صفوة أساتذة التاريخ المتخـصصين داخل الجامعات العربية وخارجهـا. كما وفرت الدار لهذه السلسلة الإخراج الفنى والتصميـمات، وكذلك المراجعة اللغوية لخروج هذه السلسلة بالصورة التى تجدونها أمامكم.

وإن أسرة الدراسات التـاريخية ليسعدها أن تقـدم هذا الكتاب الذى يصدر عن **دار الفكر العربى** ضمن هذه السلسلة، سائلين لها دوام التوفيق فى خدمة الرسالة والنهوض بالأمانة.

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور





تعاقب على حكم مصر - عبر تاريخها الطويل - عدد كبير من الحكومات والعهود، وخلال هذه العصور احتفظت مصر بهويتها وشخصيتها المتميزة. فلم يستطع أى من هذه الحكومات التى شهدتها مصر التأثير على شخصيتها، فعلى سبيل المثال لم يستطع الفرس ولا الإغريق ولا الرومان التأثير على مصر، حيث احتفظت مصر بتراثها وهويتها دون أن تذوب فى حضارة هذه الدول.

ثم كان الفتح الإسلامى لمصر، وما صاحبه من انتشار الإسلام واللغة العربية بين أهالى مصر ليؤثر تأثيرا كبيرا على تاريخ مصر، لدرجة أننا لا نكون مبالغين إذا قلنا أن الفتح الإسلامى لمصر كان نقطة تحول خطيرة فى تاريخ مصر.

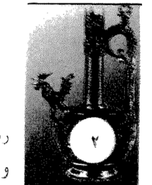
وقد وضع الولاة المسلمون الأوائل سياسة عامة فى حكم مصر سار عليها سائر الولاة فيما بعد، وهى سياسة قامت على أساس ترك الحرية الدينية لأهالى مصر فى المعتقدات وإقامة الشعائر الدينية وعدم المساس بدور العبادة أو الانتقاص منها، وزادوا على ذلك برعاية هذه الدور وإنشاء كنائس جديدة فى مختلف أنحاء الديار المصرية.

وكان لتلك السياسة القائمة على أساس التسامح الدينى، أثرها فى محبة أهالى مصر لذلك الدين الجديد، فدخل عدد كبير من المصريين فى الدين الإسلامى، أما من أراد الاحتفاظ بدينه وعقيدته فقد عاش جنبا إلى جنب مع إخوانهم المسلمين فى سلام، وعاش حياة طيبة هانئة آمنة، مما أكسب المجتمع المصرى فى ظل الحكم الإسلامى طابعا خاصا تميز بعدم التعصب أو التمرد، وأكسبته الهدوء والسكينة.

وقد ساعد ذلك بالإضافة إلى ما تمتعت به مصر من موقع جغرافى ممتاز، ومناخ معتدل على ازدهار الحضارة بمصر ازدهارا كبيرا جعلها قبلة للكافة.

وهكذا كان الفتح الإسلامى لمصر نقطة تحول خطير فى تاريخها الطويل.

المؤلف



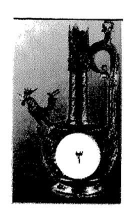
لم تكن الرسالة المحمدية قاصرة على عرب الجزيرة، وإنما هى رسالة لكل البشر. قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ... ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ]، لذلك عمل الرسول ﷺ على نشرها خارج حدود الجزيرة العربية حيث أرسل رسله إلى حكام تلك البلاد لدعوتهم إلى الدخول فى الإسلام. وكانت مصر من بين تلك البلاد التى أرسل إليها الرسول ﷺ عام ٦هـ / ٦٢٧م لدعوة حكامها إلى الدخول فى الإسلام، وكان رسوله فى ذلك حاطب بن أبى بلتعة الذى حمل كتابا إلى حاكمها قيرس الذى تسميه المصادر العربية «المقوقس»، وقد أوردت المصادر نص هذا الكتاب وهو على النحو التالى: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، فأسْلِم تسلم، وأسْلِم يؤتك الله أجرك مرتين، يا أهل الكتاب، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون».

المقوقس يقرأ الرسالة:

. أكرم (المقوقس) حاطب بن أبى بلتعة حامل كتاب رسول الله ﷺ، وبعث معه برسالة إلى الرسول ﷺ تحتوى على رد كريم جاء فيها: «لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام، أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيا قد بقى، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم، وبكسوة وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام». أما هاتان الجاريتان فكانتا مارية القبطية التى اتخذها الرسول ﷺ جارية له وتسرى بها وولدت له ابنه إبراهيم وأختها سيرين التى جعلها الرسول جارية لحسان بن ثابت فولدت له ابنه عبد الرحمن.

أوصى الرسول ﷺ أصحابه بأهل مصر خيرا، فقد روى عنه ﷺ أنه قال لأصحابه: «إن الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى مصر، فاستوصوا بقبطها خيرا، فإن لكم فيهم صهرا وذمة». كما أوصى أصحابه أن يتخذوا منها الجند «فذلك الجند خير أجناد الأرض»؛ «لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة».

وقد سار الخلفاء الراشدون على نفس سياسة الرسول فى نشر الدين الإسلامى خارج الجزيرة العربية، وتابع أبو بكر الصديق أول خليفة لرسول الله مسيرة الفتوح الإسلامية.

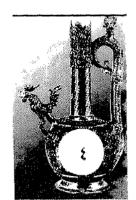


ولابد لنا أن نقــرر عدة حــقائق هامــة تدور حول حــركة الفــتوحــات الإسلامية. أولى هذه الحــقائق أنه كان وراء تلك الحركة أسبــاب مباشرة أدت إليها. أولهــا، الحماسة الدينيــة التى بثها الرسول ﷺ والصحــابة من بعده فى نفوس المسلمين، خاصة مــا جاء فى القرآن الكريم من أن الإسلام إنما هو دين عالمى ورسالة عامة لابد من تبليغها إلــى كافة البشر. بالإضافة إلى هذا السبب الرئيسى كــان هناك مجمــوعة من الأسبــاب غير المبــاشرة تتــمثل فى النواحى السياسية والاقتصادية.

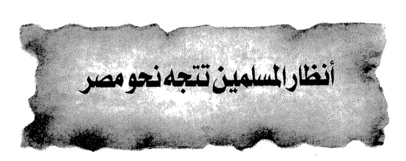
وثانى هذه الحقائق، أن هناك بعض الباحــثين المستشرقين استندوا على تلك الفــتوحات وما تبعها من معارك ضارية، ونادوا برأى غير صحيح وهو أن الإسلام انتــشر بحد السيف، وهو قــول مردود، به مغالطة للحــقيقة والتاريخ، وخاصــة أن تعاليم الإسلام تنفى عنه هذه الصفة، فقــد جاء فى التنزيل العزيز ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** (٢٥٦) ﴾ [البقرة]. كما نصت الشــريعة الإســلامية علــى ضرورة معــاملة أهل الذمة الخاضــعين للحكم الإسلامى معاملة طيــبة، فإذا دخلوا فى الإسلام فلا يفرض عليهم سوى الخراج، أما إذا فضلوا البــقاء على دينهم فلهم حرية ممارسة شــعائر دينهم على أن يؤدوا الجزية، ومعنى هذا أن الإسلام لم يشتــرط ضرورة اعتناق أهل البــلاد المفتوحــة من يهود ونصارى للإسلام.


الكنيسة المعلقة ق ٥م مبنية على قواعد برج من حصن بلبليون

وعلى هذا النحو فــإن القول بأن الإسلام انتــشر بحد السيف هو افتراء مبــين على هذا الدين؛ والحقيقة التاريخيــة تؤكد أن الحروب التى قام بهــا المسلمون إنما كانت موجهة ضد حكام هذه البلاد الذين وقفوا حــجر عثرة أمام نشر الدين الإسلامى، وأصبحوا مانعــا يمنع تعرف أهالــى هذه البلدان على الدين الإسلامى، فكان على المــسلمين محــاربة هؤلاء الحكام حتى يزيلوا هذا المانع، وليــتمكن أهالى البلاد من التعــرف على الدين الإسلامى، والدليل على ذلك أنه بعد انتصار المسلمين على حكام هذه البلدان تركوا حرية العقيدة لأهلها، وذهبوا إلى أكثر من هذا فأعــطوهم أمانا على أنفسهم وأموالهم وأماكن عــبادتهم. ومن الأنسب أن نقول: إن



الذى انتشر بحد السيف هو النفوذ الإسلامى فقط، أما الدين الإسلامى فقد أخذ طريقه فى نفوس أهالى البلدان المفتوحة بعد أن تعرفوا عليه عن قرب، وأدركوا ما يدعو إليه من تسامح ورفع الظلم وإقامة علاقات قوية بين أفراد المجتمع، وخير ما يمثل هذا انتشار الدين الإسلامى فى أماكن لم تصلها الجيوش الإسلامية، وإنما تعرف أهالى هذه البلاد البعيدة على ما جاء به الإسلام من شرائع عن طريق القوافل التجارية.

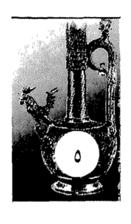


مسجد عمر بالقدس:

بعد أن أتم المسلمون فتح بلاد الشام، وتوجه الخليفة عمر بن الخطاب (١٣ ـ ٢٣هـ/ ٦٣٤ ـ ٦٤٤م) إلى الجابية أواخر عام ١٥هـ (٦٣٥م) لتسلم بيت المقدس بعد أن رفض بطريرك بيت المقدس تسليمها إلا للخليفة، وما حدث فى الجابية من كتابة كتاب أو أمان يؤمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم وأماكن عبادتهم وأشهد عليه قواد المسلمين. أخذ عمرو بن العاص يفكر فى تأمين بلاد الشام حتى لا يعاود الروم مهاجمتها مرة أخرى. والمعروف أن عمرو بن العاص كان هو القائد الذى تولى فتح فلسطين وبيت المقدس تحت إمرة أبى عبيدة بن الجراح والى الشام.

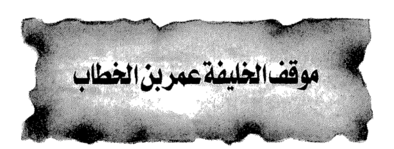
أما عمرو بن العاص فهو أبو عبد الله عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم وينتهى نسبه إلى قريش. أسلم بعد صلح الحديبية ٦هـ/ ٦٢٧م، وحسن إسلامه، وقد اشتهر بالدهاء والجلادة والحزم وصواب الرأى والفصاحة، ولاه الرسول ﷺ قيادة غزوة ذات السلاسل عام ٨ هـ/ ٦٢٩م وذلك على الرغم من أن هذا الجيش ضم كبار الصحابة أمثال أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وذلك بطبيعة الحال لخبرته بالحرب وما يتمتع به من دهاء. ثم تولى قيادة الجيوش أثناء فتح الشام. وبعد أن تم فتح بلاد الشام أخذ عمرو بن العاص يفكر فى تأمين هذا الفتح عن طريق مد النفوذ الإسلامى إلى مصر التى كانت تابعة للروم؛ وذلك حتى يأمن جانبهم من ناحية مصر.

وتروى المصادر التاريخية أن عَمْرا انتهز فرصة حضور الخليفة عمر بن الخطاب إلى الجابية عام ١٨هـ/ ٦٣٩م وحدثه فى أمر المسير صوب مصر؛ ويذكر ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص قال لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب: «ائذن لى أن أسير إلى مصر، وحرضه عليها وقال: إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا، وهى أكثر الأرض أموالا وأعجزها من القتال والحرب».



عمرو يقتل الأفعى وينقذ الرجل:

ويفهم من ذلك أنه كانت لدى عمرو بن العاص دوافع جعلته يتجه ببصره نحو مصر. وأول هذه الدوافع هو تأمين الفتوحات الإسلامية ببلاد الشام من ناحية مصر، وأن بقاء مصر بيد الروم يعرض الوجود الإسلامى ببلاد الشام إلى تهديد مستمر، وخاصة أن «الأرطبون» حاكم الروم ببيت المقدس فر من بيت المقدس إلى مصر قبل وصول عمر بن الخطاب إلى الجابية لتسلمها حيث أخذ فى إعداد العدة لمهاجمة المسلمين بالشام. والدافع الثانى هو الحصول على أكبر قدر ممكن من الأموال، وخاصة أن مصر بلد عظيم الخيرات. والدافع الثالث هو إيقان عمرو بن العاص أن فتح مصر سيكون أمرا سهلا وأن القتال لن يطول بها؛ لأن الانقسامات والاختلافات الدينية تسود بين أهلها والحكام الروم. وتروى المصادر التاريخية أن عمرو بن العاص شاهد بنفسه أثناء زيارته للإسكندرية قبل اعتناقه الإسلام ما كان يسود بأرض مصر من فوضى سياسية وخلافات دينية. أما سبب زيارة عمرو بن العاص للإسكندرية فتعود إلى أيام وجوده ببلاد الشام قبل الإسلام عندما كان يقوم برعى الأغنام، وهناك أنقذ حياة أحد رجال الدين المصريين مرتين، الأولى عندما كاد هذا الرجل يموت عطشا فسقاه عمرو بن العاص، والمرة الثانية عندما نام هذا الرجل واقتربت منه أفعى فقتلها عمرو بن العاص، مما دفع هذا الرجل المصرى لدعوة عمرو بن العاص للحضور معه إلى مصر ليسلمه جائزة قدرها ألفا دينار مكافأة له على هذا الصنيع، فوافق عمرو بن العاص وذهب إلى الإسكندرية ليتسلم هذه المكافأة، وشاهد أثناء وجوده بالإسكندرية عظمة هذه المدينة وما تتمتع به من غنى، كما تعرف عمرو بن العاص أثناء وجوده بالإسكندرية على مداخلها ومخارجها، بالإضافة إلى أنه شاهد بها تلك الاضطرابات والانقسامات الدينية التى شملت كافة أنحاء البلاد.



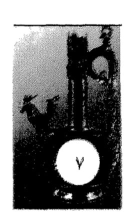
عُرف عن الخليفة عمر بن الخطاب خوفه على المسلمين من أن يلحق بهم أذى، وازداد خوفه على جيوش المسلمين. وكان يدرك تماما مدى الجهد التى بذلته جيوش المسلمين خلال فتح العراق والشام، لذلك عندما عرض عليه عمرو بن العاص فكرة التوجه لفتح مصر لم يوافق عليها على الفور؛ وذلك لعلمه بمدى التعب الذى حل بالجند على إثر المعارك المستمرة ببلاد الشام، ومن ناحية أخرى لإدراكه أن الروم لن يفرطوا فى سهولة ويسر بمصر. لكن عمرو بن العاص أخذ يهون على الخليفة أمر فتح مصر.



وبعد أن فكر عمر بن الخطاب فى أمر فتح مصر أصدر قراره بالموافقة على سير عمرو بن العاص إلى مصر. وكان عمرو بن العاص حينئذ محاصرا لقيسارية، فأرسل إليه شريك بن عبدة، يحمل له أمر المسير إلى مصر، وقد جاء فيه: «سر وأنا مستخير الله فى سيرك، وسيأتيك كتابى سريعا إن شاء الله، فإن أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى، فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره». كما أمر الخليفة أن يخرج عمرو بن العاص على رأس جيش مقداره أربعة آلاف جندى ويقال ثلاثة آلاف وخمسمائة جندى.

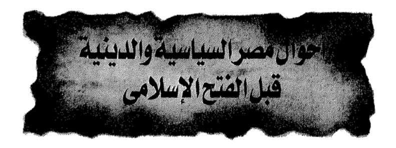
ولكن ما هى الحكمة من وراء هذا الشرط الذى اشترطه الخليفة فى رسالته إلى عمرو بن العاص وهو «إن أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها فانصرف وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره». يتضح من هذا الشرط مدى ذكاء عمر بن الخطاب فى اختبار قدرة الجيش الإسلامى فى متابعة عمليات الفتوح الإسلامية فى مصر بعد معاركهم فى بلاد الشام. فقد أيقن عمر بن الخطاب أنه إذا كان الجيش المصاحب لعمرو بن العاص المتجه إلى مصر فى كامل لياقته العسكرية وقدرته على مواصلة القتال فإنه سوف يسير بسرعة وهمة، أما إذا كانت لياقته العسكرية قد تأثرت بما بذل من جهد فى معارك الشام فإنه لن يتابع السير صوب مصر بنفس الحماس والسرعة، لذلك رأى عمر بن الخطاب أن يرسل رسالة بعد فترة معينة فإذا وصلت رسالته ولم يكن الجيش قد وصل بعد إلى حدود مصر فإن معنى ذلك أن هذا الجيش لا يتمتع بلياقة عسكرية كاملة تؤهله للدخول فى معارك جديدة على أرض مصر، لذلك أمر عمرو بن العاص أن يعود بالجيش لأنه لا يصح المغامرة بالجنود المسلمين وهم على هذه الحالة من الإعياء والتعب؛ أما إذا وصلت رسالته بعد أن يكون الجيش قد وصل إلى حدود مصر فمعنى ذلك أن الجيش فى كامل لياقته العسكرية وقادر على خوض المعارك الجديدة على أرض مصر، لذلك أمر عمرو بن العاص أن يسير فى هذه الحالة على بركة الله. ويبدو أن كثيرا من المؤرخين لم يفهموا هذا القصد الذى قصده الخليفة عمر بن الخطاب، وأخذ يتأوّل على عمرو بن العاص لدرجة أن البعض ذكر أن عمرا خرج بدون استئذان الخليفة، لكن لا صحة لهذا الرأى.

وعلى هذا النحو يتضح لنا أن الذى فكر فى المسير إلى مصر وفتحها هو القائد عمرو بن العاص الذى نظر إلى هذا الفتح بعين القائد العسكرى الذى تحتاج فتوحاته فى الشام إلى خطوط دفاع وعمق يؤمنها، ولا يتأتى ذلك إلا بمد النفوذ الإسلامى إلى مصر، ثم أشار بذلك على الخليفة الذى فكر فى الأمر مليا ثم أصدر قراره بقيام حملة عمرو بن العاص أثناء وجود الأخير بقيسارية. لذلك فنحن نؤكد مرة أخرى أنه لا عبرة لمن تأول على القائد عمرو بن العاص وذكر أنه اتجه إلى



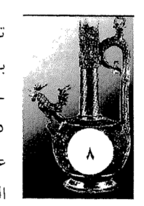
مصـر بدون علم الخليفة وغـرر بالجند وسار بهم صوب مـصر دون استـئذان الخليفة؛ لأن عمرو بن العـاص لم يكن بالرجل العادى الذى لا بقدر الأمور، وإنما هو ذو ذكاء سـياسى ومهـارة عسكرية، وكـان يعلـم جيدا أن المسـير إلى مصر يتطلب تكاتف الجـهود والمدد المستمر والدعم الكثير من الخليـفة عمر بن الخطاب.

أما عمرو بن العـاص فما إن وصله أمر الخليفة بالمسيـر إلى مصر حتى خرج مجدا حتى يصل إلى أرض مصر قـبل أن يصله كتاب الخليفة، فى حين أخـذ الخليفـة عمـر بن الخطاب يرقب الموقف وهو فى نفس الـوقت حريص على سـلامة جـيش المسلمين المتـجه صوب مصر، وازداد حـرصه عندما حدثه عثـمان بن عفان عن جـرأة عمرو التى يخشى مـعها تعرض الجـيش للخطر بقوله: «إن غمـرو بن العاص به جرأة وإقـدام وحب للإمارة ويخشى أن يخرج فى غير ثقة ولا جماعـة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدرى تكون أم لا». لذلك ازداد تخوف عمر بن الخطاب على جيش المسلمين فسارع بإرسال رسالته إلى عمرو بن العاص يأمـره فيـها بالعودة إذا لم يكن قـد دخل أرض مصـر، ووصلت هذه الرسالة وعـمرو بن العاص برفح فلم يتسلمها وجَدَّ فى السير حتى وصل إلى قرية على مقربة من العريش، وسأل عنها فقـيل له إنها من أرض مصر، هـنا تسلم عمرو بن العاص الـرسالة وقرأها، وقال لأصـحابه: أية أرض هذه؟ قالوا: من مصر. فتقدم نحو مصر، وذلك بناء على ما جاء فى الرسالة بأن يسير على بركة الله مادام قد دخل أرض مصر.



أحوال مصر السياسية والدينية قبل الفتح الإسلامى

بوقوع مصر تحت الحكم الرومانى بعد هزيمة كليوباترا السابعة فى معركة أكتيوم البحرية عام ٣١ ق م، أحكمت الإمبراطورية الرومانية قبضتها على مصر، وذلك خوفا من قيام حركات مناوئة للحكم الرومـانى من جهة، وحـرصا على ما تنتـجه مصـر من منتجـات، وخاصة القـمح حيث أصبحت مصر بمثـابة المخزن الرئيسى الذى يمد الإمبراطورية الرومانيـة بما يلزمها من قمح، لذلك وضع أباطرة الإمبراطوريـة الرومانية الأوائل نظاما فريدا لحكم مـصر بحيث أصبـحت مصر ولاية رومانية تابعـة لسلطة الإمبراطور مبـاشرة؛ كذلك وضع لها نظاما إداريا يكـفل الإشراف التام على شئـونها، ويلاحظ أن كافة التـعديلات التى طرأت على النظام الإدارى بمصر فى عـصور الأباطرة المخـتلفة إنما قـصد به إحكام السـيطرة على كل أنحـاء مصـر، من ذلك مثـلا قيـام الإمبـراطور

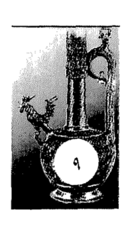


تيودسيوس (٣٧٨ ـ ٣٩٥م) بإعادة إشراف الإمبراطور على مصر إشرافا مباشرا بعد إلغاء التعديلات التى قام بها الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥م) من جعل مصر ولاية تابعة لدوق الشرق، ثم رأى الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) تفتيت السلطة فى مصر حتى يضمن عدم قيام قوة بها تتطلع للانفصال عن حكم الإمبراطورية الرومانية، فقسم مصر إلى خمس دوقيات ثم قسم هذه الدوقيات إلى أبرشيات، وأصبحت السمة الغالبة على التنظيمات الإدارية بمصر زمن جستنيان هى القضاء على وحدة البلاد السياسية، وبذلك ضمن جستنيان عدم قيام الثورات بمصر ضد الإمبراطورية الرومانية.

أما عن أحوال مصر الدينية، فبعد انتشار المسيحية بمصر أخذت مظاهر الانقسام تأخذ طريقها بين أبناء مصر، حيث ظهر بكنيسة الإسكندرية مذهبان كنسيان لكل منهما رأيه فى طبيعة السيد المسيح؛ ومن ثم أخذ الصراع المذهبى طريقه إلى مصر.

وبدأ هذا الصراع فى كنيسة الإسكندرية فمنذ ظهور القديس آريوس وهو أحد قساوسة الإسكندرية الذى أعلن رأيه فى طبيعة السيد المسيح وهى الآراء التى خالفت ما نادى به القديس أثناسيوس من آراء فى طبيعة السيد المسيح وهو أيضا أحد أساقفة كنيسة الإسكندرية.

ولم يلبث أن التف حول كل من هؤلاء الأساقفة مجموعة من المؤيدين وأصبحت الكنيسة المسيحية فى مصر فى صراع بين أتباع آريوس وهم الذين أطلق عليهم اسم «الأريوسيين»، واتباع اثناسيوس وهم الذين اطلق عليهم اسم «الأثناسيوسيين»، وانشق بذلك المجتمع المصرى. وقد حاول الإمبراطور قسطنطين (٣٢٣ ـ ٣٣٧) حل هذا النزاع بعقد مجمع دينى فى نيقيه عام ٣٢٥م حيث أدان هذا المجمع أريوس وتقرر نفيه هو وأتباعه وتحريم النقاش حول مذهبه، وتقرر أن يكون المذهب الرسمى الوحيد هو الموافق لرأى القديس أثناسيوس، ثم عاد قسطنطين مرة أخرى وعقد مجمعا دينيا آخر فى مدينة صور عام ٣٣٤م أدان فيه أثناسيوس وقرر إعادة مذهب آريوس؛ والواضح أن النواحى السياسية كانت هى التى تحرك قسطنطين، وكانت وراء إصدار قرارات المجامع الدينية، لكن المهم لدينا أنه نتج عن ذلك اشتداد الصراع بين الأريوسيين والأثناسوسيين، وتبع ذلك زيادة الاضطهاد الدينى بمصر. ومما زاد هذا الصراع الدينى وأدى إلى حدة الاضطهادات الدينية ظهور مذاهب دينية أخرى، من ذلك ظهور المذهب الملكانى أو المركانى أو الملكى نسبة إلى الإمبراطور الرومانى (وهو المذهب الكاثوليكى القائل بأن للسيد المسيح طبيعتين: إلهية وبشرية) والمذهب المعارض له وهو الذى أطلق عليه المذهب اليعقوبى، وذلك نسبة إلى يعقوب البردعى الذى تزعم هذا المذهب (وهو المذهب المنادى بأن للسيد المسيح طبيعة واحدة) وهو مذهب أغلبية أهالى مصر، وقد تعرض اليعاقبة للاضطهاد من قبل الأباطرة البيزنطيين.

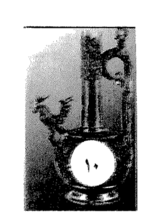


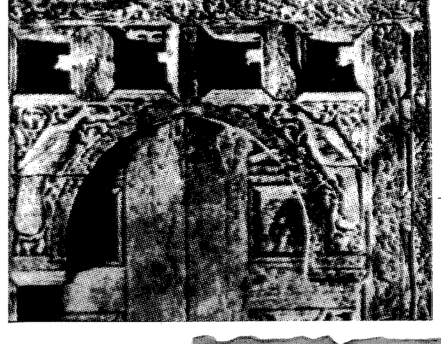


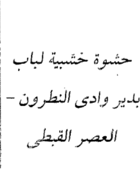
وبعـد أن تولى الإمـبـراطور هرقـل (٦١٠ ـ ٦٤١م) عـــرش الإمبراطورية البيزنطية حاول التوفيق بين أتباع مـذهب الطبيعـتين وأتباع مذهب الطبيعـة الواحدة فى مذهب واحـد هو مـذهب الإرادة الواحـدة (المونوثولستية) وكـان هذا المذهب الجديد هو وليد أفكار بطريرك القـسطنطينة سـرجيـوس. غيـر أن هذا المذهب الجديـد لم يحز رضـا أهالى مصـر ووقفـوا منه موقـفا معاديا.

وإذا كان الإمـبراطور هرقل فى تلك المـرحلة قد بذل جهدا فى سبيل استعادة قوة الإمبراطورية، فإنه لم يكن على استعداد بالتضحية بانفصال مصر عن الإمـبـراطورية، لذلك فكر فى وسـيلة لـلضرب بـها علـى يد المصـريين وقـمع تلك الفـتنة والاضطرابات التى سادت أنحاء الديار المصـرية. لذلك أرسل إلى مصر عام ٦٣١م حاكـما يجمع فى يديه السلطتـين السياسـية لكونه واليـا على الإسكندرية، والدينية لـكونه بطريركا على كنيـسة الإسكندرية، وذلك حتى يضمن عدم خروج مصر عن طاعته.

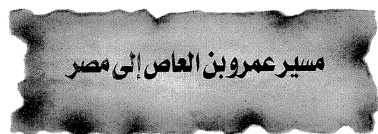
أمـا هذا الوالى والبطريرك الجـديد فكان قيـرس Cyrus الذى اشـتهـر فى كتب التـاريخ الإسلامى باسم المقوقس؛ وقد عرف عن المقوقس هذا الصلابة والرعونة والقسوة، وهو الأمر الذى زاد من حدة الاضطرابات، وخـاصة أن المصـريين رفضوا الانصـياع لأوامر المقـوقس وأعلنوا راية العصيان، وكان زعـيمهم فى ذلك البطريرك بنيامين أسقف كنيسة اليعـاقبة الذى فضل الهروب من الإسكندرية قبل وصول المقوقـس إليها ولجأ إلى صحراء وادى النطرون ومنها اتجـه إلى طيبة حيث أخذ فى تدبير الوسائل لمناهضة المقوقس والحد من سطـوته وتعكير صفوفه، بينما بذل المقوقس كل جهده فى القبض على بنيامـين لكنه فشل فى ذلك؛ لأن بنيامين كان دائم التنقل من دير إلى آخر، فى حين دبر اليعـاقبة أمر اغتيال المـقوقس لكنهم فشلوا فى ذلك أيضا. وهكذا عاشت مـصر فترة عصيبة من تاريخها كان أهم سماتها الاضطهاد الدينى.







حشوة خشبية لباب
بدير وادى النطرون -
العصر القبطى



مسير عمرو بن العاص إلى مصر

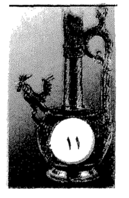
بعد أن صدرت الأوامر إلى عمرو بن العاص بالمسير إلى مصر، خرج عمرو فى العاشر من شهر المحرم عام ١٨هـ (١٢ديسمبر ٦٣٩م) وقد ألهبته وألهبت جنوده الحماسة، لدرجة أنهم ساروا مجدين عسى ألا تصلهم رسالة الخليفة إلا بعد وصولهم الحدود المصرية، لكن لم تلبث أن وصلتهم رسالة الخليفة وكانوا حينئذ برفح وهى آخر حدود فلسطين، فلم يتسلم عمرو بن العاص الرسالة وجَدَّ فى السير حتى وصل إلى قرية بين رفح والعريش قيل له إنها من قرى مصر، عندئذ تسلم الرسالة وقرأها على الجند وقال لهم: ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر؟ قالوا: بلى. قال: فإن أمير المؤمنين عهد إلىَّ وأمرنى إن لحقنى كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع، ولم يلحقنى كتابه حتى دخلت أرض مصر فسيروا وامضوا على بركة الله.

ومعنى ذلك أن عمرو بن العاص كانت تدفعه الحماسة الشديدة لفتح مصر، وهى نفس الحماسة التى كانت تحيط بجنده.

وعندما وصل عمرو بن العاص إلى العريش لم يجد بها مقاومة على الإطلاق، فدخلها وقضى بها عيد الأضحى لعام ١٨هـ حيث أمر بنحر كبش عظيم عنه وعن أصحابه.

واصل عمرو بن العاص زحفه داخل مصر حتى وصل إلى الفرما، وهى مدينة ذات حصون قديمة، كان الفرس قد هدموا حصونها، ثم أعاد الروم تحصينها وشحنها بالجنود على اعتبار أنها تمثل بوابة مصر من جهة الشرق فى تلك الفترة، ونتيجة وجود حامية بيزنطية بالفرما لم يستطع عمرو بن العاص الاستيلاء عليها بسهولة واستمر يقاتلها قرابة شهر حتى استطاع الاستيلاء عليها. وبذلك يرى كثير من المؤرخين أن أول مكان قاتل فيه عمرو بن العاص أثناء زحفه على مصر هو الفرما.

دير سانت كاترين:

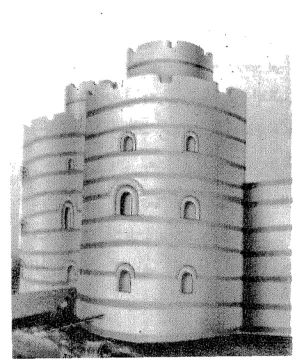


ومن الجدير بالذكر أن بعض المصادر ذكرت أن القبط بالفرما كانوا أعوانا لعمرو بن العاص أثناء قتاله بها، ومن الواضح أن الدافع وراء وقوف قبط مصر إلى جانب المسلمين أثناء زحفهم على مصر إنما يعود إلى نفورهم من الحكم البيزنطى الذى أنزل بهم ألوانا عديدة من الاضطهاد الدينى، وقد أشار ابن عبد الحكم إلى أن بنيامين لما «بلغه قدوم عمرو بن العاص إلى مصر كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا تكون للروم دولة، وأن ملكهم قد انقطع، ويأمرهم بتلقى عمرو بن العاص». ولا شك فى أن بنيامين ومن ورائه أقباط مصر قد وصل إليهم تسامح المسلمين مع نصارى بلاد الشام وإطلاق الحرية الدينية لهم، وتمنوا الخلاص من الحكم البيزنطى الذى أنزل بهم

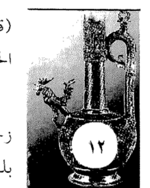


دير سانت كاترين مبنى فى عهد الإمبراطور جستنيان

كل أصناف العذاب والاضطهاد، لذلك سارع بنيامين بإرسال رسائله من مكان اختبائه إلى كافة القساوسة يدعوهم فيها إلى الترحيب بالمسلمين، وذلك بطبيعة الحال نكاية فى البيزنطيين ورغبة فى الخلاص منهم. هذا مع ملاحظة أن وجه المساعدة هنا ينحصر فى أشياء قليلة مثل قيام القبط بدور الأدلاء للطرق والمسالك أو أماكن الآبار والمياه، ولم يشتركوا معهم فى القتال والحرب. ومن ناحية أخرى كان لعدم قيام والى مصر



حصن بابليون يهدى السفن فى النيل



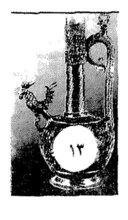
(قيرس) بتقديم النجدة اللازمة للحامية الموجودة بالفرما، أثره فى استسلام هذه الحامية واستيلاء المسلمين عليها، على الرغم من قلة عددهم وعتادهم.

بفتح الفرما ضمن عمرو بن العاص تأمين الطريق إلى مصر، وتابع زحفه نحو مصر مارا بعدة بلاد لم يحارب بها إلا إذا لزم الأمر حتى وصل إلى بلبيس التى كانت بها حامية عسكرية بيزنطية، فقاتلها عمرو بن العاص قرابة شهر واستطاع الاستيلاء عليها. ويذكر البعض أن الأرطبون ـ قائد جيوش الروم بالشام ـ الذى سبق أن هرب بعد تسليم بيت المقدس للمسلمين كان ببلبيس فى تلك الفترة، وهو الذى حاربه عمرو بن العاص حتى ألحق به الهزيمة واستولى منه على بلبيس. كما ذكرت بعض المراجع أن ابنة المقوقس كانت فى طريقها إلى قيصرية وعندما علمت بزحف جيوش المسلمين احتمت ببلبيس، وبعد سقوط بلبيس فى يد عمرو بن العاص أحسن إليها عمرو وأرسلها معززة مكرمة إلى أبيها وأرسل معها ما كانت تحمله من جواهر؛ ولا شك فى أن معاملة المسلمين الطيبة لابنة المقوقس قد أثرت كثيرا فى نفوس القبط، وأدركوا بصفة عملية سماحة الإسلام وتسامح المسلمين.

ثم تابع عمرو بن العاص زحفه حتى وصل إلى قرية أم دنين، وفى نفس الوقت كان المقوقس بعد علمه بزحف جيش عمرو بن العاص داخل الأراضى المصرية، قد غادر الإسكندرية واتجه صوب حصن بابليون وشحنه بالجنود والأسلحة، كما زود قرية أم دنين القريبة من حصن بابليون بما يلزمها من السلاح والرجال، وعهد بقيادة الروم إلى القائد تيودور.

وكان من نتيجة هذه الاستعدادات التى قام بها المقوقس وشحن قرية أم دنين وحصن بابليون بالجنود والسلاح أن عجز عمرو بن العاص عن التقدم و«أبطأ عليه الفتح» ولم يستطع الاستيلاء على أم دنين، لذلك سارع بطلب المعونة العسكرية من الخليفة عمر بن الخطاب، وأجابه الخليفة بنفس السرعة وبعث إليه أربعة آلاف جندى على رأسهم أربعة من الصحابة الذى عرف عنهم الجرأة والمهارة العسكرية وهم الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد والمقداد بن الأسود، وأرسل معهم رسالة إلى القائد عمرو بن العاص جاء فيها: «إنى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل مقام الألف..»

ويعنى عمر بن الخطاب بذلك أن كفاءة هؤلاء القواد الأربعة تعدل أربعة آلاف جندى، هذا بالإضافة إلى الأربعة آلاف السابقة، لذلك ختم رسالته بقوله: «إن معك اثنى عشر ألفا..». ومن هنا حدث خلط عند بعض المؤرخين فاعتقدوا أن عمر أرسل ثمانية آلاف رجل بالإضافة إلى الأربعة آلاف السابقة.



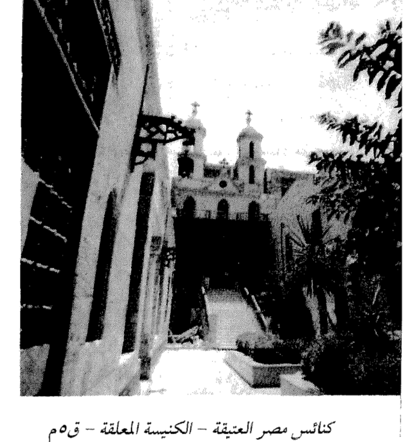
استطاع عمرو بن العاص بهذه المعونة العسكرية إنزال الهزيمة بقوات المقوقس واستولى على كل من آم دنين وعين شمس كما زحفت قواته أيضا إلى الفيوم. أما بقايا قوات الروم فقد هربوا إلى حصن بابليون.

أما حصن بابليون هذا فيرجع بناؤه إلى أيام الحكم الفارسى لمصر، حيث أسس بختنصر هذا الحصن وأقام به هيكلا للنار على نهر النيل (وهو يقع الآن فى مصر القديمة)، وبعد آن استعاد الرومان حكم مصر من يد الفرس، أكمل الإمبراطور تراجان (٩٨ ـ ١١٧) بناء هذا الحصن، وكان يوقد على صروح هذا الحصن العالية النيران والشموع، وذلك لتهدى السفن المارة فى نهر النيل. وكان يطلق على هذا الحصن اسم حصن بابليون وهى تسمية قبطية، أما العرب فأطلقوا عليه اسم «قصر الشمع» نسبة إلى تلك الشموع التى كانت توقد فى أعلى أبراجه. وكانت أسوار هذا الحصن عالية، وتتمتع بمناعة قوية، كما كانت بداخله الكنائس، مثل كنيسة «أبو سرجة» والكنيسة «المعلقة» اللتين ما زالتا باقيتين من آثار هذا الحصن إلى الآن، كما كان به بيعتان لليهود هدمهما اليهود بأنفسهم.

تولى قيادة الحامية العسكرية البيزنطية الموجودة بحصن بابليون قائد تمتع بكفاءة عسكرية أطلقت المصادر عليه اسم الأعيرج، استطاع أن يشحن الحصن بالجنود والسلاح استعدادا لحصار المسلمين للحصن. ونتيجة ذلك لم يستطع عمرو بن العاص اقتحام الحصن، ففرض عليه الحصار؛ ودام الحصار قرابة سبعة أشهر. ويعود طول مدة حصار الحصن وعدم سقوطه بسرعة فى يد المسلمين ليس إلى حصانته وشحنه بالرجال والسلاح فقط، وإنما يعود فى المقام الأول إلى أن المسلمين لم تكن لديهم المعدات الكافية لدك الحصون مثل المجانيق، لذلك اعتمدوا على بسالتهم وشجاعتهم التى كانت الحماسة الدينية هى الدافع لها.

وعندما أدرك المقوقس والأعيرج تصميم عمرو بن العاص على اقتحام الحصن هربا منه إلى جزيرة الروضة، ومن هناك أرسل إلى عمرو بن العاص يطلب فتح باب المفاوضات وعقد الصلح، فوافق عمرو بن العاص على هذا الطلب وأرسل إلى المقوقس وفدا برئاسة عبادة بن الصامت لعرض شروط الصلح. وقد بدأ المقوقس المفاوضات بمحاولة إرهاب عبادة بن الصامت وبالتلويح له بما عزمت عليه الدولة البيزنطية من إرسال الجيوش لإخراج المسلمين من مصر، وبالتقليل من قوة المسلمين وقلة عددهم، وضعفهم، وكيف أنهم فشلوا فى اقتحام الحصن واستمروا فى القتال عدة أشهر، ثم ما حدث لهم أثناء ذلك من ضيق فى العيش. ثم عرض على عبادة أن يصالحهم فى نظير دفع مبلغ من المال يقدر على أساس أن لكل فرد من المسلمين دينارين ولأميرهم مائة دينار وللخليفة ألف دينار، وذلك فى مقابل رحيل المسلمين عن مصر. ويبدو أن المقوقس لم يفهم جليا

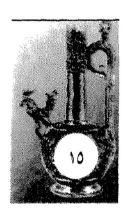
موقعة عين شمس كما وضعت فى أطلس الفتوحات الإسلامية



كنائس مصر العتيقة - الكنيسة المعلقة - ق٥م



سبيل ماء على جدار الكنيسة المعلقة



الأسباب الأساسية التى من أجلها خرج المسلمون لفتح مصر، واعتقد أن العامل الاقتصادى والرغبة فى الحصول على المال كانت هى الدافع وراء هذه الفتوحات، ولم يدرك أن هناك دافعا قويا هو الذى وراء هذه الفتوحات وهو الدافع الدينى، وهو ما أفصح عنه عبادة بن الصامت عندما رد على المقوقس بقوله أنهم ـ أى المسلمين ـ لا يخشون من الموت، فهى شهادة لهم، ولا عبرة لقلة عددهم فهذا لا يقلل من همتهم ولا يفت من عزيمتهم لأنهم مؤمنون بما جاء فى كتاب الله: ﴿ ... **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴿٢٤٩﴾ ﴾ [البقرة]، وأنهم ما حضروا إلى مصر إلا لنشر الإسلام. وعرض عبادة ابن الصامت على المقوقس قبول واحدة من ثلاثة: إما الدخول فى الإسلام، أو دفع الجزية، أو الحرب. واستشار المقوقس أصحابه فيما عرضه عليه عبادة بن الصامت، وكان من رأى المقوقس قبول العرض الثانى وهو دفع الجزية؛ ولكن أصحابه رفضوا وقالوا: «أفنكون لهم عبيدا أبدا». غير أن المقوقس أصر على رأيه فى ضرورة مصالحة المسلمين؛ لأنه أدرك أنه لا قبل لهم بمحاربتهم؛ ولذلك أرسل إلى عمرو بن العاص أن يمهله بعض الوقت حتى يأخذ رأى إمبراطور الدولة

العرب يقتحمون حصن بابليون



البيزنطية هرقل؛ ثم توجه المقوقس إلى الإسكندرية حيث عكف على كتابة رسالة إلى الإمبراطور هرقل شرح له فيها حقيقة الوضع بمصر والأسباب التى من أجلها عرض الصلح على المسلمين.

أما هرقل فما إن وصلت إليه رسالة المقوقس والتى تحتوى على إقامة الصلح مع المسلمين وتسليم مصر إليهم، حتى ثار ثورة عارمة، وغضب غضبا شديدا، وأصر على مواصلة القتال، وشرع فى إعداد حملة عسكرية لإرسالها إلى مصر، كما أصدر أمرا بعزل المقوقس عن ولاية مصر. لكن الأيام لم تطل بالإمبراطور هرقل لنرى ما هو فاعله فى مصر، وهل سيكون حظه أفضل مما كان بالشام!! فقد توفى فى ١١ فبراير عام ٦٤١م.

النسر رمز الحصن:

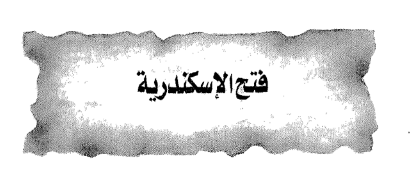
ونتيجة رفض هرقل الصلح مع المسلمين تابع الروم القتال مع المسلمين حيث أغاروا فجأة على جنود المسلمين، لكن المسلمين ردوهم على أعقابهم وأنزلوا بهم هزيمة كبيرة، غير أن وفاة هرقل أثرت على الروح المعنوية للحامية العسكرية بحصن بابليون، فى حين زاد هذا الخبر المسلمين تصميما على اقتحام حصن بابليون عن طريق القيام بعمل فدائى؛ وهذا هو ما قام به الزبير بن العوام من تسلقه الحصن عن طريق سلم وصعد إلى السور؛ وعندما أدرك أهل الحصن أن نهايتهم قريبة طلبوا من عمرو بن العاص الصلح، وفتحوا له باب الحصن؛ فوافق عمرو بن العاص على عقد الصلح معهم، وعقد لهم أمانا واصطلحوا «على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران عن كل نفس، شريفهم ووضيعهم، من بلغ الحُلم منهم، ليس على الشيخ الفانى، ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم، ولا النساء شىء» فى حين نزل الزبير بن العوام إلى داخل الحصن عنوة وخرج إلى عمرو بن العاص من الباب مع من خرج من أهل الحصن.

حصار الحصن:

ومعنى ذلك أنه حدث صلحان بين المسلمين والروم أثناء حصار حصن بابليون الأول كان صلحا مؤقتا (لم ينفذ) عقده المقوقس مع عمرو بن العاص وأرجأ تنفيذه بعد أخذ رأى الإمبراطور هرقل، لكن كلا من الإمبراطور والروم الموجودين بمصر لم يوافقوا عليه؛ واستمر القتال حتى كاد المسلمون أن يفتحوا الحصن فطلب الأعيرج أو قائد الحصن من عمرو بن العاص عقد الصلح، وهو الصلح الثانى فوافق عمرو بن العاص، وهذا الصلح الأخير هو الذى أصدر بمقتضاه عمرو بن العاص الأمان الذى سبق ذكره.

وقد أدى فتح حصن بابليون بهذه الطريقة إلى حدوث خلط بين المؤرخين فمنهم من قال إن مصر فتحت صلحا، ومنهم من قال إنها فتحت عنوة، وسوف نناقش هذا الموضوع عند الحديث عن فتح الإسكندرية وإتمام الفتح الإسلامى لمصر.





فتح الإسكندرية

بعد وصول الوالى الجديد عقب عزل المقوقس، أخذت الاستعدادات الحربية تسير على قدم وساق من أجل شحن الإسكندرية بالرجال والسلاح، كما عمل هذا الوالى على تحصين أهم المدن الواقعة على الطريق إلى الإسكندرية وذلك لإعاقة مسير الجيش الإسلامى إليها؛ لأن هذا الوالى توقع عدم اكتفاء عمرو بن العاص بالاستيلاء على ما استولى عليه من بلاد من الديار المصرية، وتوقع مسيره إلى الإسكندرية؛ لأن الإسكندرية كانت هى عاصمة الديار المصرية فى تلك الفترة، واستمرار بقائها فى يد الروم يعنى استمرار بقاء الروم بالديار المصرية.

والحديث عن الإسكندرية حديث طويل يعود إلى زمن الإسكندر الأكبر فبعد أن استسلم والى مصر الفارسى فى خريف عام ٣٣٢ق م للإسكندر الأكبر، دخل الإسكندر الأكبر منف عاصمة مصر فى تلك الفترة، حيث اتخذ نفس عوايد فراعنة مصر السابقين من تقديم القرابين للآلهة الوطنية مما حدا بأهل مصر إلى الترحيب به ملكا عليهم، ثم اتجه الإسكندر غربا قاصدا كانوب «أبو قير الحالية» حيث شيد فوق شريط من الأرض الرملية يقع بين بحيرة مريوط والبحر مدينة يونانية حملت اسمه ألا وهى مدينة الإسكندرية.

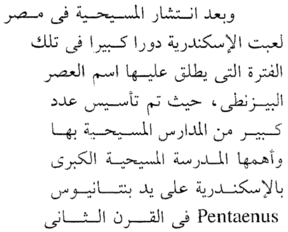
وقد ساعد موقع هذه المدينة على أن تستمر مزدهرة نشطة طوال تاريخها، فهى تقع فى الجهة الشرقية من ساحل البحر المتوسط قريبة من شواطئ بلاد الشام واليونان حيث مراكز الحضارة، كما أنها تتمتع بمناخ طيب هو مناخ البحر المتوسط مما ساعد على طيب الإقامة بها. بالإضافة إلى ذلك لم يبخل الإسكندر ومن جاء بعده من حكام مصر من البطالمة من الإنفاق عليها لتصبح أهم مدينة على ساحل البحر المتوسط.

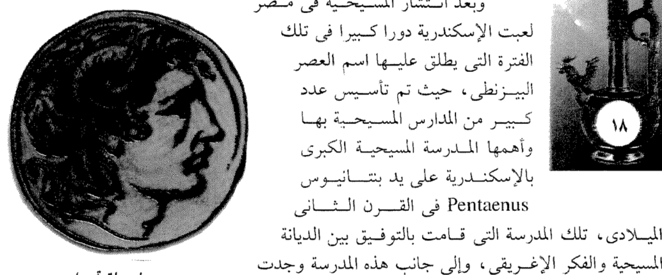
وأصبحت الإسكندرية عاصمة مصر منذ أيام البطالمة حيث انتقل إليها البطالمة بعد انتهاء مرحلة التأسيس، وأخذت بوصفها ميناء فى استقبال كافة السفن المحملة بالبضائع والتجار والعلماء مما ساعد على ازدهارها ونشاطها حيث وصلت إلى درجة متقدمة فى مجال العلم والثقافة.

ولم يؤثر سقوط حكم البطالمة فى مصر عقب هزيمة أساطيل كليوباترا السابعة فى موقعة أكتيوم البحرية عام ٣١ق م على وضع الإسكندرية، والمعروف أنه بعد سقوط مصر فى يد الرومان أصبحت الإسكندرية هى ثانى مدن الإمبراطورية الرومانية، واستمر الاهتمام بالعلماء والأدباء قائما بالإسكندرية.



وبعد انتشار المسيحية فى مصر لعبت الإسكندرية دورا كبيرا فى تلك الفترة التى يطلق عليها اسم العصر البيزنطى، حيث تم تأسيس عدد كبير من المدارس المسيحية بها وأهمها المدرسة المسيحية الكبرى بالإسكندرية على يد بنتانيوس Pentaenus فى القرن الثانى الميلادى، تلك المدرسة التى قامت بالتوفيق بين الديانة المسيحية والفكر الإغريقى، وإلى جانب هذه المدرسة وجدت مدارس أخرى مثل مدرسة المتحف ومدرسة السرابيوم. هذا بالطبع بالإضافة إلى ما شهدته الإسكندرية من نهضة اقتصادية شاملة ونهضة عمرانية أذهلت العالم المعاصر لها ومن بينهم المسلمون الذين تم لهم بعد ذلك فتحها كما سنرى فيما بعد.





رسم لعملة تحمل وجه الإسكندر الأكبر

تابع عمرو بن العاص زحفه على عاصمة مصر مدينة الإسكندرية، وكانت أول المدن التى وجدها فى طريقه مدينة نقيوس وهى مدينة ذات حصون قوية شحنها الروم بالجند والسلاح، وكانت هذه المدينة ذات شهرة فى الديانة المسيحية حيث كانت مقرا لأحد كبار رجال الدين المسيحى، كما أن لها أهمية حربية فى حراسة الطريق المؤدى إلى الإسكندرية. ونتيجة كل ذلك اندفع عمرو بن العاص بجيشه فى اتجاه مدينة نقيوس مما أثار الخوف فى نفس قائدها الرومانى، على الرغم من تلك الاستعدادات الحربية التى تمت قبل وصول عمرو بن العاص إليها، ولم يسع هذا القائد إلا الفرار إلى الإسكندرية لينجو بنفسه، ولم يلبث أن تبعه سائر جند الروم تاركين أسلحتهم خلفهم، وفعل مثل ذلك البحارة تاركين سفنهم؛ فما كان من عمرو بن العاص إلا أن انقض على البقية الباقية من الحامية العسكرية وأعمل فيها القتل واستولى على المدينة بدون مقاومة تذكر.

وبعد أن فتح المسلمون مدينة نقيوس أصبح الطريق مفتوحا أمامهم، فجدّوا فى السير فى اتجاه الإسكندرية وأوقعوا الهزائم وهم فى طريقهم إليها بالقوات الرومانية التى تحصنت ببعض المواقع مثل سنطيس وكريون، بينما أخذت جنود القائد الرومانى تيودور توالى فرارها إلى الإسكندرية.

وبوصول عمرو بن العاص إلى الإسكندرية وجد الروم قد تحصنوا بحصونها القوية ففرض عليها الحصار؛ ولما كانت المدينة تشرف على البحر فإن الإمدادات كانت تصلها عن طريق البحر، وبذلك لم يكن حصار المسلمين لها كاملا، وتوقع عمرو أن يطول الحصار بعض الشيء. لذلك ترك عمرو جزءا من جيشه يحاصر المدينة واتجه هو بجزء من هذا الجيش إلى حصن بابليون لتأمين الوجود الإسلامى به، كما أرسل بعضا من قادته إلى سائر قرى مصر فى الوجه القبلى لفتحها، وبذلك يأمن من عدم مهاجمة الروم له من ناحية، ومن ناحية أخرى ليضع الخراج على أراضى مصر ليتقوى به أثناء حصار الإسكندرية.

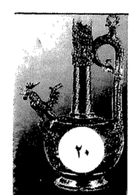
هروب الروم

ضرب الإسكندرية:



غير أن طول حصار الإسكندرية وهو الذى استمر قرابة أربعة أشهر أزعج الخليفة عمر بن الخطاب، فأرسل إلى عمرو بن العاص خطابا يحثه فيه على تكثيف القتال للانتهاء من فتح الإسكندرية، ومما جاء فيه: «فإذا أتاك كتابى هذا فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم ورغبهم فى الصبر والمنية..». وبالفعل قرأ عمرو بن العاص هذا الكتاب على جنوده فازدادت حماستهم الدينية وتولى عبادة بن الصامت قيادة الجولة القادمة حيث حمل على الروم بالإسكندرية حملة شديدة.

وفى نفس الوقت حدثت بالدولة البيزنطية عدة تطورات أثرت بصورة كبيرة على مصر؛ ذلك أن الإمبراطور هرقل لم يلبث أن توفى فى ١١ فبراير عام ٦٤١م (٢٣صفر عام ٢٠هـ) وتولى بعده ابنه الصغير هرقلوناس حيث تولت الوصاية عليه أمه مارتينا واشترك معهم فى الحكم الابن



الأكبـر لهرقل وهو قـسطنطين، وآثرت مـارتينا أن تعيـد الهدوء للإمبـراطورية البيزنطية وأن تنهى حالة الحرب مع المسلمين خاصة بعد أن أقنعها المقوقس الذى أعادته مارتينا إلى القسطنطينة من منفاه بعد عـزله من حكم مصر، أقنعها بعدم جدوى محاربة المسلـمين، لذلك رأت أن تعيد المقوقس إلى حكم مصـر ليعقد الصلح مع المسلمين ويُنهى حالة الحرب معهم.

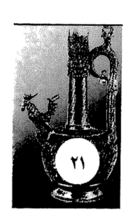
ويعلق بتلر على ذلك مـتأثرا بما صاحب تسليـم الإسكندرية من أحداث فيذكـر أن المقوقس قد خان دولة الروم منذ البداية أى منذ أن صـالح عمرو بن العاص عند حصن بابليون، وأنه استطاع إقناع مارتينا والإمـبراطور قسطنطين بعدم جدوى محاربة المسلمين، والأفضل تسليـمهم الإسكنـدرية وعقد الصلح معهم، ويصل بتلر فى اتهـامه للمقوقس إلى درجة تواطئـه مع عمرو بن العاص واتفـاقه معه سـرا فى مقابل أن يطلق عمـرو له بعد ذلك الإشراف على الكنيسة المصرية، غير أن بتلر لم يدرك تمامـا أن المقوقس كان أدرى من غيره بشعور أهالى مصـر المعادى لدولة الروم وجنوحهم إلـى الحكم الإسلامى، وهو الأمر الذى تتـوقف عليه نتائج الصـراع الدائر بين المسلمين والروم، وقد سبق أن أشـرنا إلى أن المصريين قد سئـموا الحكم الرومانى نتيـجة ذلك التعسف الشديد الذى قـامت به الإدارة البيزنطية فى مصـر؛ سواء فى جمع الضرائب التى أعـيت كاهل المصـريين، أو فى ذلك الاضطهاد الدينى الشديـد الذى وقع عليهم، لذلك وجدوا فى الحكم الإسـلامى خير وسيلة تنـجيهم من ذلك التعـسف؛ وبطبيعة الحـال كيف ينتصر الروم على المسلمين، والمصريون يقـفون بقلوبهم إلى جانب المسلمين؛ لذلك أدرك المقوقس عدم جدوى المقاومة وأنه من الأصلح تسليم الإسكندرية للمسلمين.

وبالفعل عاد المقوقس إلى مصر حيث وصـل إلى الإسكندرية فى ١٤ سبتمبر عام٦٤١م (٢ شوال ٢٠هـ) ومنها اتجـه إلى حصن بابليون حيث كـان يقيم عمرو بن العـاص، ورحب به عمرو ترحيبا كبيرا بعد أن علم أنه حضر لإتمام الصلح، وانتهت المفاوضات بين الجانبين بعقد الصلح فى نوفمبـر من نفس العام (ذو الحجة عام ٢٠هـ). وقد جـرى العرف أن يطلق على هذا الصلح اسم صلح الإسكندرية على الرغم أنه عـقد فى حصن بابليون وذلك لـتمييـزه عن الصلح السابق وهو صلح بابليون، كذلك لأن هذا الصلح الأخيـر كان يخص فى معظم بنوده مدينة الإسكندرية ومن أهم بنوده:

أولا: أن يؤدى الجزية كل من دخل فى هذا العقد.

ثانيا: تعقد هدنة لمدة أحد عشر شهرا.

ثالثا: خلال هذه الهدنة يبقى المسلمون فى أماكنهم ولا يتقدمون.



رابعا: تغادر الإسكندرية الحامية الرومانية ويسمح لهم بحمل أمتعتهم وأموالهم وذلك عن طريق البحر.

خامسا: ليس من حق الدولة البيزنطية استرداد مصر ثانية.

سادسا: أن يترك للمسيحيين فى مصر حرية العبادة ولا يتدخل المسلمون فى شئونهم.

سابعا: أن يترك لليهود حرية الإقامة فى الإسكندرية.

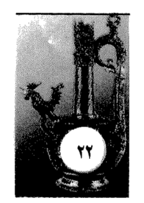
ثامنا: يؤخذ من الروم رهينة قدرها ١٥٠ جنديا و ٥٠ من أهل المدينة لضمان تنفيذ هذا العقد. وأن تكون هناك هدنة لمدة أحد عشر شهرا ليتسنى لجيوش الروم الرحيل عن الإسكندرية.

وعلى هذا النحو تم فتح مصر على يد عمرو بن العاص وأصبحت مصر جزءا من الدولة الإسلامية، وأخذت تنعم بانتشار الإسلام بين ربوعها.

وقد أثير بين المؤرخين خلاف حول طبيعة فتح مصر، هل فتحت صلحا أم فتحت عنوة؟ وتختلف النتائج تبعا لكل حالة، ففى الحالة الأولى تكون قد فتحت وفق شروط معينة تحدد مقدار الجزية والخراج، وتظل الأراضى ملكا لأهل مصر. أما فى الحالة الثانية فتكون كافة الأراضى غنيمة للمسلمين الفاتحين. وقد اختلف المؤرخون فى هذا الصدد فمنهم من قال إنها فتحت صلحا، ومنهم من قال إنها فتحت عنوة!! ويعود سبب هذا الخلاف إلى ما حدث أثناء عمليات الفتح، فبالنسبة لحصن بابليون، فقد سبق أن ذكرنا أنه حدث اتفاق، أى صلح بين عمرو بن العاص وبين المقوقس حول تسليم حصن بابليون، لكن هرقل والروم رفضوا شروط هذا الصلح مما دفع المسلمين إلى اقتحام الحصن والاستيلاء عليه بالقوة، كذلك فى فتح الإسكندرية ثم عقد صلح بين الطرفين لكن قبله بقليل شدد المسلمون هجماتهم عليها وكادت تسقط فى أيديهم.

ومما زاد الخلاف فى أمر الإسكندرية أن الروم عادوا عام ٢٥هـ/ ٦٤٥م وأغاروا على مدينة الإسكندرية - بعد عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر - واستطاعوا الاستيلاء عليها، وكان والى مصر فى ذلك الوقت عبد الله بن سعد من قبل الخليفة عثمان بن عفان، فتم إعادة عمرو بن العاص إلى مصر لمحاربة الروم؛ لأن له خبرة ودراية فى حربهم، وبالفعل استطاع عمرو بن العاص فتح الإسكندرية للمرة الثانية، ولكن هذه المرة بالقوة واستردها من يد الروم وأجلاهم عنها.

وهكذا أخذ الاختلاف بين المؤرخين طريقه فى طبيعة الفتح الإسلامى لمصر، لكن من الثابت أن مصر فتحت منذ البداية أى منذ بداية فتح حصن بابليون وفق الأمان الذى أعطاه عمرو ابن العاص لأهل مصر والذى سبق ذكره. وقد تركت الأرض لأهلها، وقد وافق الخليفة عمر بن الخطاب على ذلك بعد أن استشاره عمرو بن العاص حيث قال عمر بن الخطاب: «لا تقسمها وذرهم يكون خراجهم فيئا للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوكم».





أولا - تشييد العاصمة الجديدة (الفسطاط):

بعد أن أتم المسلمون فتح مصر، أرسل عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب رسالة شفوية مع معاوية بن خديج يبشره فيها بإتمام فتح مصر، فلما بُشر عمر بذلك خر ساجدا لله وقال: الحمد لله؛ وتوجه إلى المسجد بصحبة معاوية بن خديج ودعا المؤذن يؤذن للصلاة، فلما اجتمع الناس أمر معاوية بن حديج أن يخبر الناس بفتح الإسكندرية.

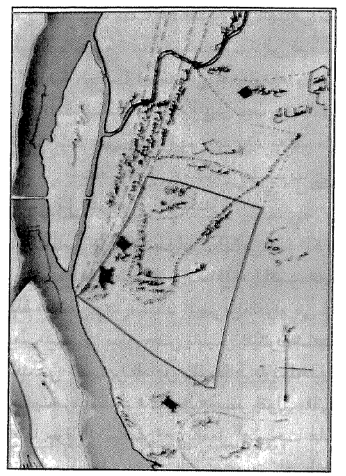
كما أرسل عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب يصف له فيها الإسكندرية التى بهرت - بما تمتعت به من ازدهار حضارى - أنظار المسلمين ويتضح ذلك مما جاء فى هذه الرسالة:

«أما بعد، فإنى فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف منية بأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية، وأربعمائة ملهى للملوك». كما أحصى عمرو بن

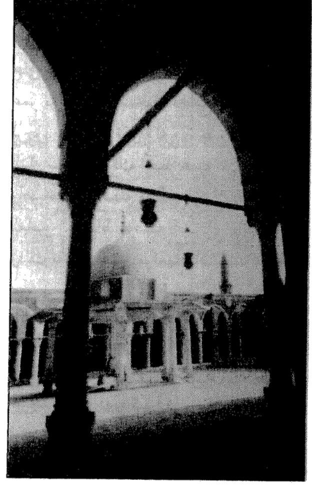
أحد حصون مسجد الفسطاط

العاص بعض المنشآت التى وجدها بالإسكندرية فوجد بها اثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر، ومن الحمامات اثنى عشر ديماسا أصغر ديماس (الحمام) فيها يسع ألف مجلس، كل مجلس فيها يسع جماعة نفر..».

ويبدو أن عمرو بن العاص قد أعجب إعجابا شديدا بالإسكندرية وبما بها من مبان ومنشآت فرأى أن يتخذها عاصمة للدولة الإسلامية الناشئة، وقال: «مساكن قد كفيناها» وأرسل إلى عمر بن الخطاب رسولا يستأذنه فى ذلك، فسأل عمر بن الخطاب الرسول: هل يحول بينى وبين المسلمين ماء؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل. فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يقول: «إنى لا أحب أن ينزل



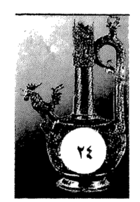
موقع مدينة الفسطاط



حصن جامع عمرو - ٢١هـ/ ٦٤١م

المسلمون منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف».

ونتيجة رفض الخليفة اتخاذ الإسكندرية عاصمة للدولة الإسلامية بمصر، تحول عمرو بن العاص إلى المكان الفسيح المجاور لحصن بابليون وكان عبارة عن أرض فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف باسم المقطم ولم يكن

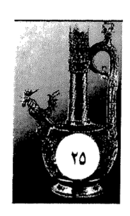


به بناء سوى حصن بابليون. وكان هذا المكان قد عسكر فيه المسلمون سابقا أثناء حصارهم لحصن بابليون، وقد أقيم لعمرو بن العاص فيه فسطاط أى خيمة، فلما انتهى فتح حصن بابليون وأراد عمرو بن العاص التوجه إلى الإسكندرية لفتحها أمر بنزع فسطاطه فوجد فيه يماما قد فرخ، فأمر عمرو بن العاص ألا ينزع ويستبقى إكراما لهذا الطير، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى رقة عمرو بن العاص ومن معه من المسلمين، فلما عاد عمرو بن العاص من الإسكندرية بعد إتمام فتحها قالوا: أين ننزل، قالوا: الفسطاط نسبة إلى فسطاط عمرو الذى تركوه بجوار حصن بابليون، وبالفعل تم إنشاء العاصمة الجديدة فى هذا الموضع وأطلق عليه اسم الفسطاط. وقد اختلف المؤرخون فى تفسير كلمة الفسطاط فهناك من يرى أنها غير عربية اشتقت من اللفظ اللاتينى Fossatum الذى أطلقه الرومان على معسكراتهم الحربية، ومنهم من يرى أنها عربية وأن كلمة فسطاط تعنى المدينة، وأن كل مدينة فسطاط، ومنهم من ينسبونها إلى فسطاط عمرو بن العاص الذى تركه بجوار حصن بابليون قبل التوجه إلى الإسكندرية.

وسارعت القبائل العربية المصاحبة لعمرو بن العاص فى اختطاط المنازل لها فى هذا المكان الجديد، ويقال إن عمرو بن العاص أوكل أمر وضع خطط الفسطاط إلى جماعة من أصحابه، بالإضافة إلى مشاركة بعض قبط مصر فى وضع هذه الخطط. ومما يذكر أن الزبير بن العوام بنى له دارا فى هذه المدينة الجديدة ووضع به السلم الذى صعد به إلى سور حصن بابليون ليكون شاهدا على ما تم أثناء فتح حصن بابليون من جهد. كذلك بنى عمرو بن العاص بالفسطاط دارا للخليفة عمر بن الخطاب بجوار الجامع، وأرسل إلى الخليفة يخبره بذلك، فكتب إليه عمر يقول: «أنى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر؟ وأمره أن يجعلها سوقا للمسلمين»؛ وبالفعل أصبحت هذه الدار سوقا. كذلك اختط عمرو بن العاص داره عند باب المسجد. وبمرور الوقت عمرت الفسطاط وأصبحت عاصمة مصر الإسلامية فى هذه الفترة. وجدير بالذكر أنه لا يعنى اتخاذ عمرو بن العاص الفسطاط عاصمة لمصر أن الإسكندرية أهملت أو فقدت أهميتها ولكنها استمرت مزدهرة، وذلك بفضل أهمية موقعها وأصبحت بمثابة العاصمة الثانية لمصر الإسلامية.

ثانيا - جامع عمرو أو الجامع العتيق:

من أهم المنشآت التى شيدها المسلمون بمصر عقب الفتح ذلك الجامع الذى عرف باسم جامع عمرو نسبة إلى عمرو بن العاص، أو باسم الجامع العتيق أو تاج الجوامع. والمعروف أن المسجد يلعب دورا كبيرا فى حياة المسلمين، فبالإضافة إلى دوره الدينى فى إقامة الصلاة فهو المركز الرئيسى الذى يجتمع داخله المسلمون للتشاور فى مختلف الأمور، ومقر الدعوة الإسلامية. ولذلك كان أول اهتمامات الرسول ﷺ بعد هجرته إلى المدينة المنورة تأسيسه المسجد النبوى بها. كذلك سارع عمرو بن العاص بعد إتمام فتح مصر واختطاط العاصمة الجديدة (الفسطاط) إلى أن

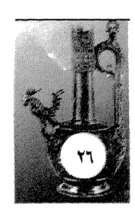


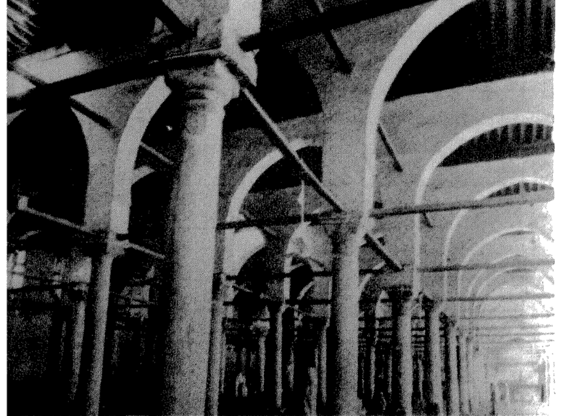
يشيد عام ٢١هـ/ ٦٤١م مسجدا جامعا بالفسطاط. والمعروف أن معظم القبائل التى كانت مصاحبة لعمرو بن العاص والتى اختطت لنفسها منازل بالفسطاط أقامت لها مساجد بجوار هذه المنازل، لذلك رأى عمرو أن يشيد مسجدا جامعا تجتمع فيه كافة القبائل للصلاة، وخاصة صلاة الجمعة، وللاجتماع إذا لزم الأمر. وذلك سيرا على ما اتبع فى كافة البلدان التى تم فتحها، فقد أشار المؤرخون إلى أنه: «لما فتح عمر البلدان كتب إلى أبى موسى وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجدا للجماعة ويتخذ القبائل مساجد، فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة، وكتب إلى سعد بن أبى وقاص وهو بالكوفة بمثل ذلك، وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك..».

وقد أقيم هذا الجامع على أرض حازها قيسبة بن كلثوم التجيبى الذى استقر بها أثناء حصار حصن بابليون وكانت مزروعة بالأعناب، ولما رأى عمرو بن العاص أن يشيد المسجد على هذه الأرض تصدق قيسبة بها؛ وكانت مساحة المسجد عند إنشائه خمسين ذراعا فى عرض ثلاثين ذراعا، وكان الطريق يطيف به من كل جانب، كما كان له ستة أبواب اثنان يقابلان دار عمرو بن العاص واثنان فى بحريه واثنان فى غربيه، كما أقيم على طراز المسجد الحرام. وقد اتخذ فيه عمرو بن العاص منبرا، فلما عرف بذلك الخليفة عمر بن الخطاب أرسل إلى عمرو بن العاص ينهاه عن اتخاذ المنبر وارتقاء رقاب المسلمين ويأمره بتكسيره، ومما جاء فى رسالة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص فى هذا الشأن «أما بعد، فإنه بلغنى أنك اتخذت منبرا ترقى به على المسلمين، أو ما يحسبك أن تقوم قائما، والمسلمون تحت عقبيك، فعزمت عليك لما كسرته».

ويعتبر جامع عمرو هو أول جامع أنشئ فى مصر الإسلامية؛ لذلك أطلق عليه اسم الجامع العتيق، كما أطلق عليه أيضا اسم تاج الجوامع ومسجد أهل الراية، كما اهتم به من تولى ولاية مصر بعد ذلك فعملوا على توسعته وتزيينه وفرش أرضيته. وقد ذكرت المصادر أنه حضر إقامة القبلة فى هذا الجامع ثمانون رجلا من صحابة رسول الله ﷺ من بينهم الزبير بن العوام والمقداد وعبادة بن الصامت وأبو الدرداء وغيرهم.

ولقد لعب جامع عمرو دورا كبيرا فى مصر، فبالإضافة إلى دوره الدينى كان له دور كبير فى الحركة العلمية بمصر حيث كانت تقام فيه الدروس الدينية، كما كان مركزا للقضاء والإدارة، وظل هذا الجامع هو المسجد الجامع الوحيد بمصر الإسلامية إلى أن بنى جامع العسكر عام ١٦٩هـ/ ٧٨٥م. وقد مدحه كثير من الرحالة والمؤرخين الذين شاهدوه أثناء زيارتهم لمصر بقولهم: «هو إمام المساجد، ومقدم المعابد، قطب سماء الجوامع، ومطلع الأنوار اللوامع، عين قلادة البنيان، وعقيلة بيوت الملك الديان».





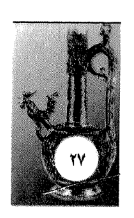
جامع عمرو من الداخل

ثالثا - تشييد مدينة الجيزة:

إذا كانت معظم القبائل العربية المصاحبة لعمرو بن العاص قد نزلت بالفسطاط وشيدت منازلها بها، فإن بعض القبائل الأخرى قد نزلت بموضع الجيزة ورغبت فى الاستقرار بها، فكتب عمرو بن العاص إلى الخليفة عمرو بن الخطاب يعلمه بذلك، فرد عليه الخليفة بأن يعمل على جمع كافة القبائل العربية وإنزالهم معه وألا يكون هناك ما يشتت شملهم أو يفرق بينهم مثل وجود ماء. وفى حالة إصرار هذه القبائل على الاستقرار بالجيزة فلابد من بناء حصن لهم فى هذا المكان يكون لهم مأمنا.

عرض عمرو بن العاص ما ورد إليه من عند الخليفة على القبائل المستقرة بالجيزة، وعرض عليهم الإقامة بالفسطاط والنزول مع بقية القبائل العربية، لكنهم رفضوا وأصروا على البقاء فى الجيزة، فشرع عمرو بن العاص فى بناء حصن لهم بالجيزة انتهى منه عام ٢٢هـ.

أما سبب استقرار هذه القبائل بالجيزة فيعود إلى الوقت الذى شرع فيه عمرو بن العاص فى الاستقرار بمصر بعد إتمام فتح الإسكندرية وأخذ فى تشييد وبناء عاصمته الجديدة الفسطاط، وقد خشى عمرو بن العاص من مداهمة عدو له من الناحية الجنوبية؛ لذلك عهد إلى بعض القبائل العربية وهى ذى أصبح من حمير وهمدان وآل رعين وطائفة من الأزد وطائفة من الحبشة، بالإقامة فى الجيزة ليكونوا بمثابة خط دفاع من الناحية الجنوبية. وبعد أن أتم بناء العاصمة عرض عليهم العودة إلى الفسطاط لكنهم رفضوا، خاصة بعد أن وجدوا راحتهم فى الإقامة فى هذه المنطقة وقالوا: «هذا مقدم قدمناه فى سبيل الله وأقمنا به، ما كنا بالذين نرغب عنه ونحن به منذ أشهر».



وأخذت هذه القبائل فى تخطيط مدينة الجيزة حيث نزلت كل قبيلة فى منازل لها.

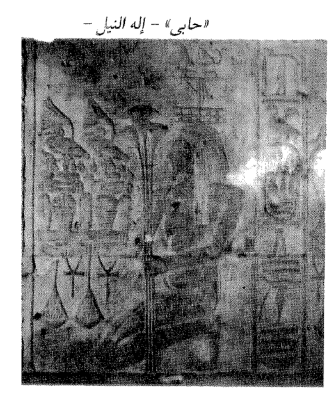
والجيزة فى لغة العرب. تعنى الوادى أو أفضل موضع فيه. ويشير المقريزى إلى أنها تعنى الناحية أو الجانب وجمعها جيِّز، والجيز هو جانب الوادى.

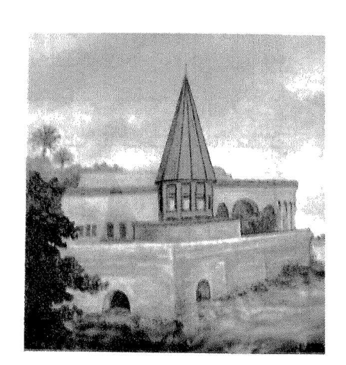
وعلى هذا النحو تعتبر مدينة الجيزة مدينة إسلامية تم بناؤها عام ٢١هـ، ثم تطورت ونمت بعد ذلك على مر مراحل تاريخ مصر الإسلامية.

رابعا - المسلمون والنيل:

أدرك المسلمون منذ البداية أهمية النيل بالنسبة لمصر، فهو الذى يمد أرض مصر بالحياة، وقد نسب إلى عمرو بن العاص إحدى القطع الأدبية وهى بمثابة رسالة أرسلها إلى

«حابى» - إله النيل -

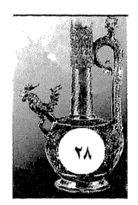




مقياس النيل بمصر القديمة



فرس النهر بتميمة زرقاء
ترمز للنماء والإخصاب
(إله الولادة)



الخليفة عمر بن الخطاب يصف له فيها أرض مصر ونيلها. ومما جاء فيها: «يخط وسطها - أى مصر - نيل مبارك الغدوات ميمون الروحات، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر، له أوان، يدر حلابه، ويكثر فيه دُبابه، تمده عيون الأرض وينابيعها حتى إذا ما اضلخم عجاجه وتعظمت أمواجه، فاض على جانبيه فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا فى صغار المراكب، وخفاف القوارب...، فإذا تكامل فى زيادته نكص على عقبيه كأول ما بدأ فى جريته، وطما فى درته..».

وبطبيعة الحال اعتنى المسلمون بأمر هذا النهر المبارك، حيث قام عمرو بن العاص ببناء عدة مقاييس عند حلوان وأسوان ودندرة للوقوف على حال نهر النيل من زيادة ونقصان؛ لأنه ترتب على زيادة أو نقصان ماء النيل تحصيل الخراج؛ لأنه إذا نقص الماء عن حد معين وهو الحد الذى يعجز أهالى مصر عن زراعة أراضيهم، أو زاد الماء إلى الحد الذى تستبحر معه الأراضى فتفسد المزروعات، وفى كلتا الحالتين لا يتم تحصيل الخراج. أما إذا كانت الزيادة بالدرجة التى تكفى لرى الأراضى بدون نقصان أو زيادة فى هذه الحالة يتم تحصيل الخراج.

ومن الجدير بالذكر أن المؤرخ ابن عبد الحكم ذكر رواية نقلها عنه معظم من جاء بعده من المؤرخين، هذه الرواية تقول أنه بعد أن أتم عمرو بن العاص فتح مصر وحل شهر بؤونة جاء بعض أهالى مصر إلى عمرو بن العاص وقالوا له: أيها الأمير إن لنيلنا سُنّة لا يجرى إلا بها، فقال لهم: وما ذاك؟ قالوا: إنه إذا كان لاثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر - أى شهر بؤونة - عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها، فأرضينا أبويها، وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها فى هذا النيل». لكن عمرو بن العاص رفض الانصياع وراء هذا القول ورد قائلا: «إن هذا لا يكون فى الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما قبله». ولكن حدث نقصان ماء النيل وتأخر فيضانه، مما أدى إلى قلق كثيرٍ من أهالى مصر، فأرسل عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب يعلمه بما حدث من أهل مصر وما حدث من نقصان لمياه النيل. فأرسل الخليفة كتابا إلى عمرو بن العاص قال له فيه: «قد أصبت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها فى داخل النيل إذا أتاك كتابى». وقد جاء فى هذه البطاقة: «من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر، أما بعد، فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك». فألقى عمرو بن العاص هذه البطاقة فى النيل ففاض ماء النيل وبلغ ستة عشر ذراعا، وعم الفرح كافة أرجاء الديار المصرية.



وقصة إلقاء فتاة بكر فى النيل هى قصة خرافية، فلم يثبت فى أى عصر من عصور تاريخ مصر القديم أن ألقى عروس فى مجرى النيل، لكن كانت تجرى بعض الطقوس الدينية لهذا النهر، ويتم قذف الكعك وحيوانات الضحية والفاكهة والغنائم وكذلك تماثيل الإناث وذلك لإخصاب النيل. ووصلت أهمية النيل عند قدماء المصريين أن صوروه على أنه إله اسمه «حابى»، لكنه لم يكن إلها ذا عبادة منتظمة، ولكن كانت له أناشيد ترتل فى أوقات معينة، ويحتفل بتقديم القرابين له فى أوقات معينة أيضا، وكانت هذه القرابين لاتخرج عن إلقاء بعض حيوانات الضحية والحلوى والتماثيل وخاصة تماثيل الإناث.

الاحتفال بالنيل:

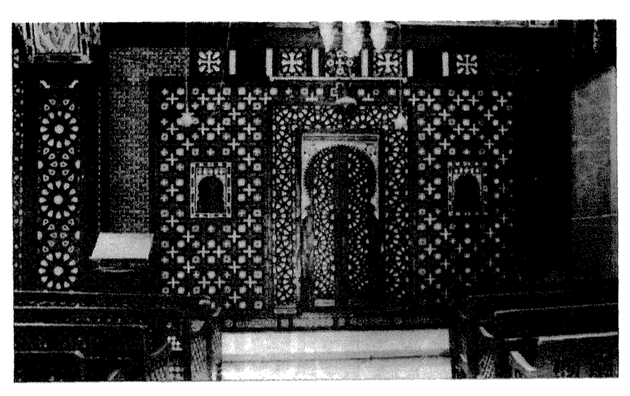
وبعد انتشار الديانة المسيحية بمصر احتفل بالنيل فى عيد أطلقوا عليه اسم «عيد الشهيد» فى اليوم الثامن من شهر بشنس، وكانوا يلقون تابوتا من الخشب به أحد أصابع موتاهم، ويقيمون فى هذا اليوم احتفالا ضخما حيث يخرج كافة أهالى مصر وينصبون الخيام على شاطئ النيل، ويبدو أنه خلال هذا الاحتفال كان يستفيد التجار (خاصة تجار الخمور) وأصحاب الملاهى استفادة كبيرة مما جعلهم يصرون على إقامة هذا الاحتفال. ويذكر المقريزى أنه «يباع من الخمر فى ذلك اليوم بما ينيف على مائة ألف درهم فضة..» ونتيجة ذلك استمر إقامة هذا العيد فى بعض عصور مصر الإسلامية إلى أن تم إبطاله نهائيا عام ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م فى زمن السلطان الصالح صالح بن محمد ابن قلاوون (٧٥٢ ـ ٧٥٥هـ).

خامسا - الأقباط فى ظل الحكم الإسلامى:

تمتع قبط مصر أو بمعنى آخر أهالى مصر الذين تمسكوا بالديانة المسيحية بكامل حريتهم سواء فى ناحية العقيدة أو فى الممتلكات، وشاركوا مشاركة فعالة فى مختلف أنشطة الحياة فى مصر فى ظل الحكم الإسلامى. وقد ساعد على ذلك الأمان الذى أعطاه عمرو بن العاص لأهل مصر ونصه: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصُلُبهم، وبرهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شىء من ذلك ولا ينتقص، ولا يساكنهم النوب. وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف، وعليهم ما جنى لصوتهم ـ لصوصهم ـ فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزاء بقدرهم، وذمتنا ممن أبى بريئة، وإن نقص نهرهم من غايته إذا



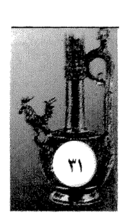
انتهى رفع عنهم بقدر ذلك، ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، أو يخرج من سلطاننا. عليهم ما عليهم أثلاثا فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم، على ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين».



من كنائس مصر القديمة العصر القبطى

وهكذا حرص عمرو بن العاص على تأمين أهالى مصر الذين فضلوا الاحتفاظ بمسيحيتهم فأمنهم على أنفسهم أى ضمن لهم الحياة الكريمة وألا يمسهم أحد بسوء، كما أمنهم على ملتهم أى منحهم حرية العبادة وألا يتعرض لهم أحد، وأن يمارسوا شعائر دينهم بكل حرية وألا يتعرض أحد لكنائسهم وصلبانهم وألا تنتقص من هذه الكنائس أو الصلبان أى شىء. ومعنى ذلك أن المسلمين تركوا حرية العقيدة تماما لأهل مصر ولم يجبروهم على اعتناق الإسلام. وكان عمرو بن العاص يتصرف وفق ما تمليه عليه الشريعة الإسلامية، فقد ورد فى التنزيل العزيز: ﴿ **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ... ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة]، ولذلك لم يجبر المسلمون أهالى البلاد المفتوحة لاعتناق الإسلام، وهو ما سبق أن أشرنا إليه.

ومن ناحية أخرى أمن عمرو بن العاص كنائس أقباط مصر بحيث لا تمس ولا تتعرض لمكروه ولا ينتقص منها شىء لا هى ولا صلبانها، والأكثر من ذلك فقد سمح عمرو بن العاص



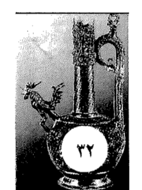


محراب الكنيسة المعلقة – العصر القبطى

ومن جاء بعده من ولاة مصر ببناء كنائس فى عاصمة مصر الإسلامية الفسطاط، ويذكر ابن عبد الحكم أن أول كنيسة بنيت بالفسطاط كانت الكنيسة التى خلف القنطرة فى زمن ولاية مسلمة بن مخلد على مصر (٤٧ ـ ٦٢هـ) وقد أصر مسلمة على بنائها على الرغم من معارضة بعض الجند،

تصوير جدارى – الزراعة فى مصر منذ فجر الحضارة

الدولة القديمة مقبرة تيتى إكر



وتبع ذلك تشييد عدد كبير من الكنائس بالديار المصرية. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الحرية الدينية التى تمتع بها أقباط مصر فى ظل الحكم الإسلامى. وذلك بطبيعة الحال على عكس ما تعرضوا له من اضطهاد شديد على يد الحكام الرومان الذين أذاقوا أقباط مصر ـ خاصة أتباع المذهب اليعقوبى ـ كل ألوان العذاب.

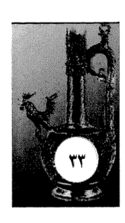
ومن ناحية ثالثة فإن عمرو بن العاص قرب إليه بنيامين بطريرك اليعاقبة ومنحه أمانا عام ٢٠هـ أى بعد إتمام فتح مصر مباشرة، وأعاده إلى كرسى بطريركية الكنيسة اليعقوبية بعد أن كان مختفيا نتيجة اضطهاد الروم له. ومنذ ذلك الحين استعاد اليعاقبة دورهم فى تاريخ الكنيسة المصرية.

ومن ناحية رابعة اشترك أقباط مصر فى مختلف شئون الحياة الخاصة فى مجال الحكم والإدارة، واعتمد الحكام المسلمون اعتمادا كبيرا على الأقباط فى مختلف دواوين الحكم، كما اعتمدوا على عدد منهم فى مجالات الصناعة والطب، ونبغ عدد كبير من العلماء الأقباط فى ظل الحكم الإسلامى.

ومن ناحية خامسة لم يستول المسلمون على ممتلكات أقباط مصر، بل تركوها لهم، فهذا هو الأمان ينص على تأمين أموالهم وممتلكاتهم وبرهم وبحرهم.

وقد فرض على أقباط مصر فى مقابل حماية المسلمين لهم قدر ضئيل من المال هو مقدار الجزية، وذلك إذا قورن بالضرائب الباهظة التى كان يدفعها أقباط مصر للرومان. بالإضافة إلى قيمة الخراج المفروضة على الأراضى الزراعية، ومن الجدير بالذكر أن مقدار الخراج لم يكن ثابتا وإنما يتغير بحسب حالة ماء النيل وما يعتريه من زيادة أو نقصان، فلم يكن يجبى الخراج إلا إذا فاض النيل، وإذا قل ماؤه نقص مقدار الخراج. هذا مع ملاحظة أن الجزية لم تفرض على كل أهالى مصر، وإنما فرضت فقط على الرجال القادرين على العمل، فلم تفرض على النساء والأطفال والشيوخ. وكان لهذه المعاملة الطيبة التى عامل بها المسلمون أهالى مصر أثرها الكبير فى ميل أهالى مصر إلى هؤلاء الفاتحين الجدد وميلهم إلى هذا الدين الجديد، فتحول عدد كبير منهم إلى الإسلام واعتنقوه عن طيب خاطر بعد أن تعرفوا عليه عن قرب.

وخير دليل على ما تمتع به أقباط مصر من حرية فى امتلاك الأراضى وزراعتها بدون تضييق عليهم وما تمتعوا به من ثروات ضخمة، ما ذكره المقريزى ما حدث للخليفة العباسى المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ/ ٨١٣ ـ ٨٣٣م) عندما زار مصر عام ٢١٧هـ/ ٨٣٢م ومروره بمعظم قرى مصر، لكنه

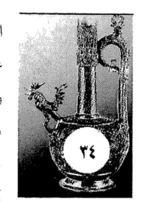


تخطى إحدى القرى ظنا منه أنها قليلة الأهمية، لكن خرجت إليه صاحبة هذه القرية وكانت امرأة قبطية اسمها مارية القبطية وسألت الخليفة أن ينزل بضيعتها، وأعدت لهم أصنافا عديدة من الطعام ثم أهدت الخليفة ومن معه هدايا ثمينة كان فيها أطباق فى كل طبق كيس من ذهب ضرب كله فى عام واحد، وعندما رفض الخليفة أن يأخذ هذه الهدايا، استعطفته ليأخذها، وأخذت قطعة من الأرض وقالت: «يا أمير المؤمنين هذا ـ وأشارت إلى الذهب ـ من هذا ـ وأشارت إلى الطينة التى تناولتها من الأرض، تعنى أن هذا الذهب حصلت عليه من زراعة هذه الأرض، ثم من عدلك يا أمير المؤمنين، وعندى من هذا شىء كثير.

سادسا - انتشار الإسلام واللغة العربية:

أما عن انتشار الدين الإسلامى بمصر والأسباب التى أدت إلى انتشاره بسرعة كبيرة فهو حديث طويل، ويعود سبب انتشار الإسلام فى مصر بهذه السرعة إلى مجموعة من العوامل يأتى فى مقدمتها ما سبق أن سمع به أهالى مصر من سماحة هذا الدين وذلك من إخوانهم ببلاد الشام، والمعروف أن المسلمين بعد فتح بلاد الشام تركوا الحرية الدينية لأهالى الشام، لذلك تمنى أهالى مصر الواقعون تحت ظلم الروم الخلاص من هذا الحكم على يد المسلمين، وهذا هو ما يفسر لنا موقف البطريرك بنيامين المرحب بقوات عمرو بن العاص. وبعد أن أتم المسلمون فتح مصر تركوا لأهلها كما سبق أن أوضحنا حرية العقيدة لهم فى مقابل مبلغ ضئيل من المال ـ الجزية ـ وذلك للدفاع عنهم وحمايتهم. ومن ثم عاش أهالى مصر فى كنف ورعاية الدولة الإسلامية، وتعرفوا عن قرب على هذا الدين ولمسوا ما يتمتع به من مبادئ تدعو للعدالة وإزالة الظلم والمساواة بين الناس وتنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع تنظيما دقيقا، هذا بالإضافة إلى ما يدعو إليه من عبادة الله الواحد القهار، لذلك انخرط عدد كبير من أهالى مصر معتنقين هذا الدين عن طيب خاطر؛ ومن ناحية ثانية فإن رغبة عدد من أهالى مصر فى التخلص من دفع الجزية ـ وإن كانت كما ذكرنا مبلغا ضئيلا ـ دفعهم إلى اعتناق الإسلام؛ ومن ناحية ثالثة فإن رغبة البعض فى المشاركة الفعالة فى مختلف نواحى الحياة خاصة الاشتغال فى دواوين الدولة دفعهم إلى اعتناق دين الفاتحين، على الرغم من أن القيادة الإسلامية فى مصر لم تفرق بين من اعتنق الإسلام ومن ظل على مسيحيته، والجميع كانت أمامهم فرص المشاركة فى دواوين الدولة، وخاصة أن اللغة التى استخدمت فى دواوين مصر فى تلك الفترة كانت اللغة القبطية. لكن البعض رأى أنه من الأفضل أن يدين بالإسلام حتى يكون أكثر قربا من القيادة الإسلامية.

وفى نفس الوقت أخذت اللغة العربية فى الانتشار بمصر، ويعود ذلك إلى أنها لغة الفاتحين الذين أصبحوا حكام مصر، حيث سعى الكثير من أهالى مصر لتعلم اللغة العربية حتى يستطيع

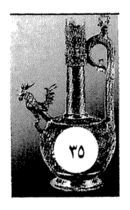


التحدث وفهم قيادة البلاد؛ ومن ناحية ثانية فإنها لغة القرآن الكريم، وأصبح على كل مسلم أن يعرف اللغة العربية حتى يؤدى شعائر دينه على خير وجه، وحتى يفهم معانى القرآن الكريم، ومن ناحية ثالثة كان استخدام اللغة العربية فى الدواوين الحكومية، ثم جعلها بعد ذلك اللغة الرسمية فى تلك الدواوين عام ٨٧هـ/ ٧٠٦م، بعد أن كانت هذه الدواوين تكتب باللغة القبطية؛ لذلك أخذ الأقباط العاملون فى دواوين الدولة فى تعلم اللغة العربية؛ ومن ناحية رابعة فإن ما حدث من اختلاط اجتماعى بين العرب الفاتحين وبين أقباط مصر، وهو الاختلاط الذى ساعد على انتشار اللغة العربية بصورة كبيرة بين أهالى مصر. كل هذه العوامل ساعدت مجتمعة على انتشار اللغة العربية بمصر.

أما هذا الاختلاط الاجتماعى، الذى بدأ متأخرا بعض الشىء حيث لم يبدأ إلا بعد مرور ما يقرب من ثمانين عاما، ففى البداية كان المسلمون الفاتحون لا يقومون بالاشتغال بالزراعة فى مصر، لكن مع بداية القرن الثانى الهجرى وفى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥هـ/ ٧٢٤ ـ ٧٤٣م) تغيرت هذه السياسة حيث قرر الخليفة هشام إنزال بعض القبائل العربية ريف مصر وسمح لها بالاشتغال فى الزراعة؛ وقد ساعد توطين العرب بريف مصر على حدوث الاختلاط الاجتماعى بين المسلمين الفاتحين وأهالى مصر، وخاصة أن الإسلام يدعو إلى المساواة وعدم الترفع والكبرياء، وفى نفس الوقت لا يحرم الزواج من أهل الكتاب، ومن ثم أخذ العرب يتزوجون من مصريات؛ وساعد ذلك على سرعة انتشار الإسلام بمصر، وساعد أيضا على انتشار اللغة العربية، وأدى إلى حدوث مزج بين المسلمين الفاتحين وأهالى مصر.

سابعا - مكتبة الإسكندرية:

وإذا تكلمنا عن الحياة الثقافية بمصر بعد الفتح الإسلامى لها، فإنه حديث طويل؛ ذلك لأن مصر فى الفترة السابقة على دخولها فى ظل الدولة الإسلامية كانت مركزا ثقافيا مزدهرا خاصة خلال العصرين البطلمى والرومانى، وتبوأت الإسكندرية عاصمة مصر فى تلك الفترة النشاط الثقافى فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط، ووفد عليها العلماء من شتى البلاد ينهلون من علومها ويشاركون فى محافلها العلمية. وخير ما يمثل ذلك ما وصلت إليه مكتبة الإسكندرية من شهرة عالمية جذبت معها العلماء من كل حدب وصوب. ومن الجدير بالذكر أنه بعد الفتح الإسلامى لمصر تم توجيه اتهام للفاتحين بأنهم دمروا هذه المكتبة وجعلوها وقودا لأفران حمامات الإسكندرية!! فهل فعلا قضى المسلمون على هذا الصرح العلمى الذى طالما تغنت به الإسكندرية ومصر؛ ومن ثم سوف نتحدث عن هذه المكتبة ومصيرها بشىء من التفصيل .



نشأة مكتبة الإسكندرية:

بعد دخول الإسكندر الأكبر مصر واندحار الفرس عام ٣٣٢ ق م، رأى تشييد عاصمة جديدة له بها، فسار فى النيل حيث الساحل ورأى أن أنسب مكان هو مكان قرية قديمة تسمى راقودة تواجهها فى البحر جزيرة تعرف باسم فاروس وتقع إلى الجنوب منها بحيرة ماريا أو مريوط. غير أن هذه المدينة التى اشتقت اسمها من اسم مؤسسها لم يتم استكمال عمارتها زمن الإسكندر، بل تم تأسيسها فقط على يديه فلم يلبث الإسكندر أن غادر مصر فى العام التالى (٣٣١ ق م) ليواصل معاركه ضد الملك الفارسى فى الشرق، ثم ما حدث من وفاته فجأة فى يونيه عام ٣٢٣ ق م فى مدينة بابل.

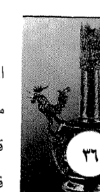
وقد ترك الإسكندر من خلفه إمبراطورية مترامية الأطراف حيث طمع قادته فى اقتسامها فيما بينهم، وكانت مصر من نصيب قائده بطليموس بن لاجوس. ولم يلبث بطليموس أن أنشأ بمصر دولة حملت اسمه (دولة البطالمة).

وكان أهم ما شغل بطليموس هو إتمام بناء الإسكندرية التى اتخذها عاصمة له.

ولم يكن بطليموس قائدا عسكريا فحسب، وإنما كان أيضا على درجة كبيرة من الثقافة والعلم لدرجة أنه ألف كتابا عن تاريخ الإسكندر، كما اعتمد على عدد من الشخصيات الإغريقية اللامعة فى إدارة مصر، ومن بين هذه الشخصيات كان ديمتريوس الفاليرى الآثينى الذى جمع بين الفلسفة والسياسة، وكان أحد تلاميذ أرسطو، ولم يلبث ديمتريوس أن أشار على بطليموس بأن ينشئ بالإسكندرية مجمعا علميا ويلحق به مكتبة تجمع فيها مختلف الكتب من سائر بلدان العالم المعروف. وقد وافق بطليموس على هذا الاقتراح يدفعه فى ذلك رغبته فى التفوق على سائر قادة الإسكندر، وفى أن تصبح مصر هى درة بلدان الشرق.

أطلق على هذا المجمع العلمى اسم «موسيون» Mouseion وهى كلمة يونانية بمعنى «معبد ربات الفنون والعلوم»، وتولى ديمتريوس الإشراف على هذا المجمع، ومن الجدير بالذكر أن بطليموس، ومن بعده خلفاءه لم يبخلوا على هذا المعهد العلمى بالمال، حيث رصدت مبالغ طائلة لشراء الكتب واجتذاب العلماء من كل مكان.

أما مكان هذا الموسيون الذى اشتمل على المكتبة فكان داخل القصور الملكية على شاطئ الميناء الشرقى حيث يقع الحى الملكى المسمى بروشيون Bruchion حيث يشاهد فى وسط المعابد والبساتين الشاسعة القصر الملكى والمتحف والمكتبة. (انظر الخريطة التالية).

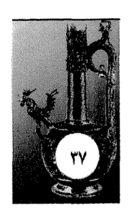


وقد احتوت هذه المكتبة على عدد ضخم من الكتب لدرجة أنه قيل إن عددها وصل فى نهاية العصر البطلمى إلى ٧٠٠,٠٠٠ سبعمائة ألف مخطوط، وهذا عدد ضخم بالنسبة لهذا العصر القديم الذى لم يعرف طباعة الكتب، حيث كانت هذه الكتب تنسخ باليد.



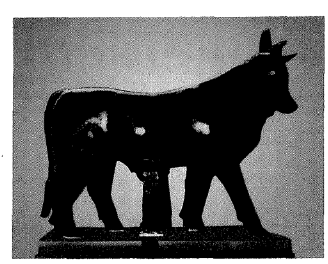
تمثال للإسكندر الأكبر

مدينة الإسكندرية فى العهد البطلمى - الإسكندرية



ويبدو أن بطليموس ومن خلفه من بعده من ملوك البطالمة أراد أن يجعل من مكتبة الإسكندرية مكتبة عالمية تضم تراث الإنسانية بصرف النظر عن كونه إغريقيا، فاشتملت مكتبة الإسكندرية على كتب من مختلف أنحاء العالم المعروف آنذاك، وبذل فى ذلك كل الطرق للحصول على هذه الكتب، حيث تم إرسال المبعوثين إلى مختلف أسواق الكتب خاصة فى أثينا ورودس لشراء الكتب القيمة الموجودة بأسواقها، ومن بين المكتبات التى تم شراؤها وضمها إلى مكتبة الإسكندرية مكتبة الفيلسوف الشهير أرسطو حيث تم شراؤها بمبلغ ضخم ووضعت فى مكتبة الإسكندرية، مما أضفى عليها أهمية كبيرة، لدرجة أنه حدث خلط عند الكثير من الكتاب ووصفوا مكتبة الإسكندرية بأنها مكتبة أرسطو.

ومن الجدير بالذكر أن البطالمة حرصوا على أن تضم مكتبة الإسكندرية المجموعات الأصلية للكتب ورفضوا اقتناء نسخ خطية منها، من ذلك أن بطليموس الثالث أرسل إلى أثينا يطلب المخطوطات الأصلية لمسرحيات أيسخولوس وسوفوكليس ويوربيديس ليقوم

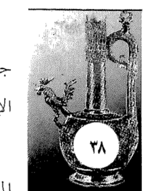


تمثال سيرابيس – العهد البطلمى

بنسخها وردها ثانية لخزانة مدينة أثنيا ودفع تأمينا لهذه النسخ الأصلية قدره خمسة عشر مليون تالنت من الفضة ضمانا لسلامة هذه المخطوطات، لكن سرعان ما فضل بطليموس الثالث الاحتفاظ بالنسخ الأصلية مضحيا بمبلغ التأمين الضخم؛ مما يدل على ما بذله البطالمة من تضحيات فى سبيل اقتناء المجموعات النادرة والأصلية من الكتب وضمها إلى مكتبة الإسكندرية.



يوليوس قيصر



وبطبيعة الحال تبع وجود هذه المكتبة الضخمة نشاط علمى مزدهر، حيث جذبت هذه المكتبة عددا كبيرا من العلماء والأدباء والباحثين، وأصبحت الإسكندرية بذلك منارة للعلم فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط.

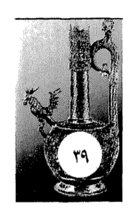
ومن الجدير بالذكر أنه وجدت إلى جانب مكتبة الإسكندرية الكبرى الموجودة داخل القصور الملكية ـ وهى التى تحدثنا عنها توا ـ مكتبة أخرى لكن أصغر منها وهى التى عرفت باسم مكتبة السيرابيوم. نسبة إلى معبد السيرابيوم الذى أنشأه بطليموس الثالث للإله سيرابيس وهو الإله الرسمى الجديد لدولة البطالمة!!. ويقع معبد السيرابيوم فى الحى الشعبى بالإسكندرية، وهو الذى يطلق عليه الآن حى كوم الشقافة، ووصلت شهرة هذا المعبد إلى كل أنحاء العالم القديم، وقد ضم هذا المعبد مكتبة كما كان الحال فى كل المعابد القديمة.

وهكذا وجد فى الإسكندرية فى العصر البطلمى مكتبتان، الأولى وهى المكتبة الكبرى فى الموسيون والأخرى أصغر منها وهى مكتبة السيرابيوم.

فما هو مصير هاتين المكتبتين؟ المكتبة الكبرى وهى مكتبة الموسيون وهى التى عرفت باسم مكتبة الإسكندرية، ثم مكتبة السيرابيوم.

يحدثنا التاريخ أنه فى نهاية العصر البطلمى حدث صراع بين الدولة الرومانية ودولة البطالمة، حيث أخذت الدولة الرومانية فى التوسع وفرض نفوذها على الحوض الشرقى من البحر المتوسط، ولذلك رأى قادتها ضرورة الاستيلاء على مصر؛ وكان حكام البطالمة فى تلك الفترة يمرون بمرحلة من مراحل الضعف والانهيار، ونشبت الحروب الأهلية بينهم، وخاصة بين كليوباترا السابعة وأخيها بطليموس الثالث عشر حول العرش.

ولم تجد كليوباترا نصيرا لها سوى القائد الرومانى يوليوس قيصر، على الرغم من أنه من الناحية الرسمية عدو لمصر، ما حضر إلى الشرق إلا ليستولى على مصر، لكن كليوباترا السابعة بما أوتيت به من ذكاء وجمال استطاعت أن تؤثر على يوليوس قيصر وتجعله يقف إلى جوارها فى صراعها مع أخيها، ومن ناحية أخرى فإن يوليوس قيصر لم يجد أية غضاضة فى مساعدة كليوباترا ما دام سيحقق نصرا يضمن به فى النهاية وضع يده على مصر ثم ضمها إلى حوزة الدولة الرومانية.



لكن خصوم كليوباترا السابعة ناضلوا بشدة ضدها وضد حليفها يوليوس قيصر وكادوا أن يحققوا النصر والاستيلاء على السفن الموجودة بميناء الإسكندرية، ولو حدث ذلك لازدادت قوتهم ولأصبح النصر مؤكدا لهم، هنا سارع يوليوس قيصر بإشعال النار فى هذه السفن حتى لا تقع فى يد أعدائه، وبذلك تحقق له ولكليوباترا السابعة النصر.

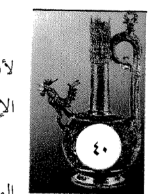
حريق ميناء الإسكندرية:

ومن الملاحظ أن إحراق السفن امتدت ناره إلى داخل الميناء حيث ألحقت أضرارا بالغة بالمبانى والقصور الملكية التى كانت تطل على الميناء، ومن بين هذه المبانى تلك التى ضمت الموسيون ومكتبة الإسكندرية، وقد أكد هذه الحقيقة عدد من المؤرخين القدماء الذين أشاروا إلى أن عددا كبيرا من كتب الموسيون يقدر بحوالى ٤٠٠,٠٠٠ أربعمائة ألف كتاب قد أحرق أثناء الحريق الذى أشعله يوليوس قيصر فى الميناء.

وعلى هذا النحو دمرت مكتبة الموسيون أو مكتبة الإسكندرية الكبرى على يد يوليوس قيصر، ولم يعد لها وجود فى الموسيون.

لكن هل معنى ذلك أن الإسكندرية فقدت أهميتها العلمية ولم تعد مركزا للنشاط الثقافى؟ تأتى الإجابة بالنفى، فقد استمرت الإسكندرية رغم حريق مكتبة الموسيون تؤدى دورها فى المجال العلمى، وذلك لأننا سبق أن أشرنا إلى وجود مكتبة أخرى هى مكتبة السيرابيوم، وإن كانت أصغر من تلك التى أحرقت على يد يوليوس قيصر، وقد نمت مكتبة السيرابيوم نموا كبيرا بعد حريق مكتبة الموسيون؛ كذلك أنشأت كليوباترا معبدا يسمى معبد القيصرون الجديد، وأهم ما احتواه هذا المعبد مكتبة كبيرة؛ بالإضافة إلى ذلك فبعد اغتيال يوليوس قيصر عام ٤٤ ق م وحضور القائد الرومانى أنطونيوس إلى الشرق ثم وقوعه فى غرام كليوباترا السابعة أهدى إليها مكتبة كبيرة هى مكتبة مدينة برغامة وبلغ عدد كتبها ٢٠٠,٠٠٠ مائتى ألف كتاب، وذلك على سبيل التعويض عن إحراق مكتبة الموسيون.

وعلى هذا النحو عادت الإسكندرية مرة أخرى إلى ما كانت عليه مركزا ثقافيا نشطا بفضل تلك المكتبات العامرة التى تمتعت بها، كذلك استمرت تؤدى دورها الرائد فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط، وأصبحت ثانى المدن بعد روما فى الإمبراطورية الرومانية.

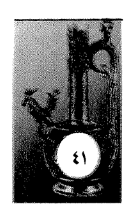


ومن هنا يأتى التساؤل؛ أين ذهبت هذه الكتب بعد الفتح الإسلامى؟ لأن هناك من اتهم المسلمين بأنهم أحرقوا هذه الكتب عقب فتحهم لمدينة الإسكندرية!!

للإجابة على هذا التساؤل نعود بتاريخ مصر والإسكندرية قليلا إلى الوراء، خاصة بعد انتشار الديانة المسيحية فى مصر وغيرها من بلدان الإمبراطورية الرومانية، ووقوف الأباطرة الرومان موقف المعارضة من هذا الدين الجديد؛ حيث أنزلوا أشد ألوان الاضطهاد والعذاب بكل من اعتنق هذه الديانة، وكانت مصر وأهلها هدفا للأباطرة الرومان حيث انتشرت المسيحية بها بصورة كبيرة؛ وقد أنزل الإمبراطور كاركلا (٢١٢ - ٢١٧م) والإمبراطور جالينوس (٢٦٠ - ٢٦٨م) والإمبراطور أورليانوس (٢٧٠ - ٢٧٥م) والإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥م)، أشد ألوان التنكيل والتعذيب لمسيحى مصر، وقد صاحبت هذه الموجة من الاضطهادات تدمير وتخريب لكثير من المبانى والمنشآت خاصة ما تبقى من الموسيون، ثم ما حدث زمن دقلديانوس من حرق جميع الكتب التى تتحدث عن صناعة المعادن مثل الذهب والفضة؛ وذلك حتى لا يستفيد بها المصريون فى صنع الذهب الذى يتقوون به ويساعدهم ذلك على الثورة ضده. وهكذا كان موقف الأباطرة الرومان المعادى للمسيحية ذا أثر سيئ على مبانى الموسيون وما به من أرفف حاوية أعدادا لابأس بها من الكتب بحيث لم يعد للموسيون دور بعد هذا التاريخ، كذلك فى تدمير عدد كبير من كتب صناعة المعادن.

أما مكتبة السيرابيوم فقد استمرت تؤدى دورها فى العصر الوثنى وساعدها فى ذلك وجودها داخل المعبد، حيث حالت قدسية المعبد من امتداد الأيدى إليها. ولكن بعد انتشار المسيحية، أصبحت المعابد هدفا للمسيحيين حيث بدأت سلسلة من الهجمات المنظمة على هذه المعابد بقصد القضاء عليها، والقضاء على الوثنية جميعا؛ وتم التركيز على المعابد التى تضم مجموعات كتب تعود أصولها إلى الوثنية، وبذلك لم تسلم مكتبة السيرابيوم ومكتبة معبد القيصرون من هذا الهجوم.

أما الفترة التى حدث فيها هذا الهجوم على المعابد وتدمير ما بها من كتب فكانت خلال القرن الرابع الميلادى أى قبل الفتح الإسلامى لمصر بقرنين من الزمان، وذلك بعد أن انتصرت المسيحية على يد الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦ - ٣٢٣م) حيث أصدر مرسوم ميلان عام ٣١٣ م

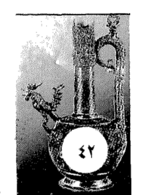


الذى سمح بمقتضاه للمسيحيين بحرية ممارسة شعائر دينهم بلا خوف بعد أن كانت المسيحية ديانة مضطهدة؛ ثم حققت المسيحية انتصارا أكبر على يد الإمبراطور ثيودسيوس (٣٧٨ ـ ٣٩٥ م) عندما جعلها الديانة الرسمية الوحيدة بالدولة عام ٣٩٢ م، وبذلك نالت المسيحية كل ما تتمناه، ثم أعقب ثيودسيوس قراره بإصدار قرار أخطر وهو تدمير معابد الإسكندرية وما تحتويه من كتب وثنية، وسارع الأسقف تيوفيليوس بتنفيذ هذا القرار بحماس شديد، وبذلك تم تدمير معابد الإسكندرية وما بها من كتب ومن بينها مكتبة السيرابيوم ومكتبة معبد القيصرون.

وعلى هذا النحو تم تدمير مكتبة الإسكندرية الكبرى (مكتبة الموسيون) أثناء حريق يوليوس قيصر للسفن الراسية فى ميناء الإسكندرية، ثم تدمير مكتبة السيرابيوم ومكتبة معبد القيصرون زمن انتشار المسيحية، خاصة بعد قرار الإمبراطور ثيورسيوس. ومعنى ذلك أنه لم يكن بالإسكندرية أثناء الفتح الإسلامى مكتبة يتحدث عنها أحد؛ فلماذا إذن اتهم المسلمون بأنهم قاموا بإحراق مكتبة الإسكندرية؟ ومن الذى وجه الاتهام إليهم؟

بالبحث فى المصادر التاريخية اتضح أن المؤرخين الأوائل الذين تناولوا قصة الفتوح الإسلامية بصفة عامة وفتح مصر بصفة خاصة أمثال ابن عبد الحكم (توفى ٢٥٧هـ) فى كتابه فتوح مصر والمغرب، والبلاذرى (توفى ٢٧٩هـ) فى كتابه فتوح البلدان، والكندى (توفى ٣٥٠هـ) فى كتابه الولاة والقضاة، وكذلك تلك المصادر التى تناولت التاريخ الإسلامى العام أمثال خليفة بن خياط (توفى ٢٤٠هـ) فى تاريخه، واليعقوبى (توفى ٢٨٢هـ) فى تاريخه، والطبرى (توفى عام ٣١٠هـ) فى كتابه تاريخ الرسل والملوك، كذلك المؤرخ القبطى المعاصر لأحداث الفتح الإسلامى لمصر والقريب العهد منها وهو يوحنا النقيوسى (عاش فى القرن الأول من الهجرة). أقول إننا لم نجد فى هذه المصادر إشارة واحدة إلى اتهام عمرو بن العاص بحرق مكتبة الإسكندرية، ولم نجد ذكر لمكتبة الإسكندرية أصلا.

واستمرت المصادر لا تذكر شيئا عن هذه القصة حتى القرن السادس الهجرى وبالتحديد عندما ذكر عبد اللطيف البغدادى (٥٥٧ ـ ٦٢٩هـ) وهو طبيب ورحالة طاف بالبلاد وزار مصر وأقام بها على فترات، أورد فى كتابه «الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة



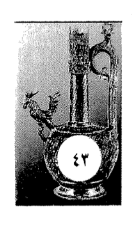
بأرض مصر» بعض مشاهداته فى مصر وقام بالتعليق عليها، ويهمنا منها حديثه عن الإسكندرية، حيث ذكر عنها: «. . .وفيها كانت خزانة الكتب التى أحرقها عمـرو بن العاص بإذن عـمر رضى الله عنـه». وهى أول مرة يتم ذكـر حريق المسلمين لهذه المكتبة التى أثبتنا سابقا أنها لم تكن موجوده أثناء الفتح الإسلامى لمدينة الإسكندرية.

ثم أورد نفس هذه القصة كاتب وأديب عاش فى نفس فترة عبد اللطيف البغـدادى وإن كان متـأخرا عدة سنوات وهو ابن القـفطى (٥٦٥ ـ ٦٤٦هـ) حيث ذكر فى كـتابه تاريخ الحكماء هذه القصة وزاد عليها بالكيفـية التى تم التخلص بها من تلك المكتبة حيث روى أن عمرو بن العـاص بعد فتح الإسكندرية طلب منه أحـد قساوسة القبط وهو يحـيى النحوى والذى كان بينه وبين عمـرو بن العاص مودة، أن يسمح له بالاسـتفادة مما تحتويه الخـزانة الملكية من كتب الحكمة، فرد عـمرو بن العاص بأنه لابد من استـئذان الخليفة فى هذا الأمر، فـكتب إلى عمر بن الخطاب بشأنها فرد عليه الخليفة بقوله: «وأما الكتب التى ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله، ففى كتاب الله عنه غنى، وإن كان فيـها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها، فـتقوم بإعدامها»، ويروى ابن القفطى الكيفيـة التى تم التخلص بها من المكتبة، حيث قام عمـرو بن العاص بتوزيعها على حمامات الإسكندرية لتحرق فى أفرانها، ويذكر ابن القفطى أن المدة التى استغرقتها حرق هذه الكتب كانت ستة أشهر.

ثم ردد هذه القصة بعد ذلك ابن العبـرى (٦٢٤ ـ ٦٨٥هـ) وهو طبيب كان والده يهوديا ثم اعتنق المسـيحية لـذا سمى بابن العبرى، حـيث ذكر فى كتـابه «تاريخ مختـصر الدول» نفس هذه القصة كما وردت عند ابن القفطى.

ثم أخذت المصـادر تردد هذه القصة إمـا نقلا عن عبـد اللطيف البغـدادى أو نقلا عن ابن القفطى وابن العبرى دون التحقق من صحتها.

لكننا إذا دقـقنا النظر نجـد ـ وبدون شك ـ أن مكتبـة الإسكندرية الكبـرى كذلك مـكتبـة السيرابيوم ومكتـبة معبد القيصرون قـد تم تدميرها جميعا قبل الفـتح الإسلامى للإسكندرية بفترة طويلة ـ كمـا سبق أن أوضحنا ـ ولم يتـحدث أحد من المؤرخـين المسلمين الأوائل عن قـصة هذا الحريق لا من قريب ولا مـن بعيد، كذلك فإن المؤرخ القـبطى يوحنا النقيوسى القـريب العهد من

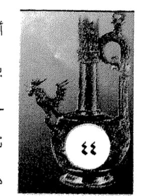


الفتح الإسلامى للإسكندرية والذى عاش فى القرن الأول الهجرى لم يذكر شيئا عن قصة حرق المسلمين لمكتبة الإسكندرية، ولو كان حدث مثل هذا الأمر لما سكت عليه يوحنا، وخاصة أنه كثيرا ما وجه انتقادات واتهامات لعمرو بن العاص والمسلمين المصاحبين له أثناء فتحهم لبلدان مصر. وهذا ما يؤكد بما لا يدع مجالا للشك براءة المسلمين من هذه التهمة.

لكن إذا كان الأمر كذلك فلماذا ذكرت هذه القصة. أو إن شئت الدقة فلماذا ذكرها مؤرخو القرن السادس الهجرى والسابع الهجرى؟.

إن القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى هو الذى شهد موجة الحروب الصليبية واشتداد أمرها زمن الأيوبيين الذين بذلوا كل جهدهم فى الجهاد ضد العدوان الصليبى، وشهد العصر الأيوبى هزائم كبيرة للصليبيين حيث جاءت حطين (عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) على رأسها، وهى المعركة التى كان من أهم نتائجها استرداد المسلمين بيت المقدس. ونتيجة ما أمسى فيه الصليبيون من انهيار، لا يستبعد أن يكون الغرب الأوروبى قد أخذ يحيك بعض الاتهامات التى وجهها للمسلمين لتشويه صورتهم ولتأليب الرأى العام ضدهم، وذلك باتهامهم بحرق مكتبة الإسكندرية، وربما سمع عبد اللطيف البغدادى هذه الادعاءات المغرضة وصدقها ودونّها فى كتابه دون تحقيق، ومن الجدير بالذكر أن القسيس يحيى النحوى الذى أورد ذكره القفطى والذى طلب من عمرو بن العاص أن يمنحه هذه الكتب أثبت بتلر عدم وجوده على قيد الحياة فى هذه الفترة، مما يقلل أو يبطل رواية ابن القفطى من أساسها. ثم جاء بعده ابن القفطى وسمعها لأنه أيضا معاصر لفترة الحروب الصليبية فرددها هو أيضا فى كتابه. والمعروف أن عبد اللطيف البغدادى اعتمد على السمع أكثر من المشاهدة، لذلك جاءت معظم معلوماته خاطئة، أما ابن العبرى فلم يكن فى حاجة لمن يدفعه لاتهام المسلمين وخاصة أن معظم كتاباته مليئة بالتهم التى وجهها إلى المسلمين ولا ننسى أن والده كان يهوديا. ثم جاء المؤرخون المتأخرون ليرددوا ما ورد فى كتابات مؤرخى القرن السادس والسابع دون وعى ولا تحقيق.

ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء المؤرخين المتأخرين الذين رددوا هذه القصة دون وعى كان من الممكن قيامهم بدحضها وعدم قبولها ببساطة، لأنها احتوت على ما ينفى صحتها، حيث تذكر القصة الطريقة التى تم التخلص بها من هذه المكتبة، وهو قيام عمرو بن العاص بتوزيعها على



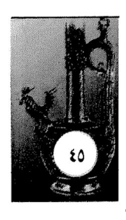
أفران حمامات الإسكندرية لحرقها، واستمر ذلك لمدة ستة أشهر!! فكيف يستقيم هذا الأمر مع رغبة عمرو بن العاص - فى رأى هذا الفريق من المؤرخين - فى تدمير هذه المكتبة التى تحتوى على الكتب المخالفة للشريعة الإسلامية وفى نفس الوقت يتركها فى أفران الحمامات لمدة ستة أشهر وهى مدة كفيلة بتهريب هذه الكتب خارج الحمامات، ووصولها إلى أيدى من يرغب فى اقتنائها، وخاصة أن الإسلام مازال حديث العهد بمصر، ولم يزل غالبية أهالى مصر على مسيحيتهم. وكان أولى بعمرو بن العاص أن يسارع بحرقها فى أسرع وقت ممكن حتى ولو فى مكانها.

ومن جهة أخرى فإن اتهام عمرو بن العاص بإحراق مكتبة الإسكندرية يتنافى مع مبادئ الدين الإسلامى الداعى إلى العلم والتعلم، وخير شاهد على ذلك ما قام به العلماء المسلمون من المحافظة على التراث اليونانى القديم ودراسته وترجمته إلى اللغة العربية وشرحه، ولا نبالغ إذا قلنا أنه لولا ما قام به علماء المسلمين من جهد فى ترجمة هذا التراث وشرحه والإضافة إليه ونقده إذا لزم الأمر لضاع هذا التراث، وإن أوروبا فى عصر النهضة لم تعرف هذا التراث إلا عن طريق المسلمين. فكيف والحال هذه يتم تصديق ادعاء كاذب بأن المسلمين قاموا بإحراق نفائس الكتب التى كانت تحتويها مكتبة الإسكندرية.

وهكذا يتضح لنا براءة عمرو بن العاص والمسلمين من تهمة تدمير مكتبة الإسكندرية وحرقها.



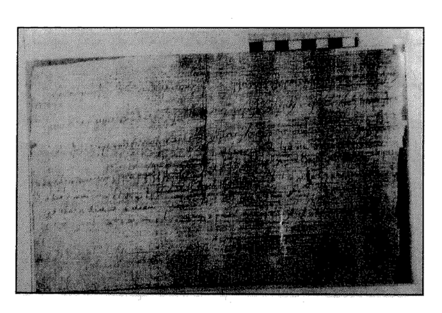
صنع مصر حشوة خشبية
من القرن الأول للهجرة



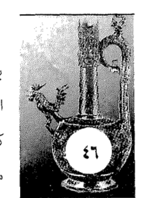
ثامنا - النشاط الاقتصادى:

اهتم المسلمون الفاتحون لمصر بكافة نواحى النشاط الحضارى بمصر، وأخذ النشاط الاقتصادى جانبا كبيرا من هذا الاهتمام، والمعروف أن معظم القبائل العربية التى شاركت فى عمليات فتح مصر ثم استقرت بها كانت من القبائل اليمنية؛ وقد عرف عن اليمن أنها كانت ذات حضارة زاهرة وعرف اليمن باسم اليمن السعيد؛ ولاشك فى أن هذه القبائل اليمنية التى استقرت بمصر كانت عاملا مساعدا فى ذلك النشاط الاقتصادى الذى شهدته مصر بعد الفتح الإسلامى؛ هذا بالإضافة إلى ما تمتعت به مصر من مناخ طيب ساعد على جودة الزراعة بها، وذلك النهر المبارك الذى كان وما زال عاملا فاعلا فى الخير العميم الذى تتمتع به مصر، وما تمتعت به أرض مصر من جودة عالية ساعدتها فى زراعة مختلف المحاصيل.

وخير ما قيل فى وصف مصر وما تمتعت به من خير عميم ما ذكره المسعودى بقوله: «ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء، وثلاثة أشهر مسكة سوداء، وثلاثة أشهر زمردة خضراء، وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء. فأما اللؤلؤة البيضاء فإن مصر يركبها الماء فترى الدنيا بيضاء، . . وأما المسكة السوداء حيث ينكشف الماء عنها وينضب عن أرضها فتصير أرضا سوداء، وفيها تقع الزراعات، وأما الزمردة الخضراء حيث يكثر عشبها ونباتها فتصير كالزمردة الخضراء، وأما السبيكة الحمراء حيث يبيض الزرع ويتورد العشب فهو كسبيكة الذهب منظرا ومنفعة».



أقدم بردية عربية عُثر عليها – مصر ٢٣هـ بردية أهناسيا



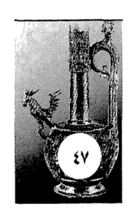
وقد أدرك عمرو بن العاص هذه الحقيقة منذ البداية فعمل على الاهتمام بالثروة الزراعية والوصول بها إلى أقصى درجات الازدهار والتقدم، فاهتم بأمر النيل وعمل على حفر الترع وتشييد الجسور والاهتمام بزراعة المحاصيل الجديدة، كما اهتم بقياس النيل للوقوف على مدى نقصان وزيادة مياهه، وذلك لتحديد مقدار الخراج، والمعروف أن عمرو بن العاص هو أول من أمر ببناء مقياس للنيل فى العصر الإسلامى حيث بنى مقاييس عند حلوان وأسوان ودندرة.

كما اهتم المسلمون أيضا بالصناعة المصرية، والمعروف أنه كان بمصر قبل الفتح الإسلامى لها صناعات قديمة مزدهرة مثل صناعة دبغ الجلود والورق والنسيج والأخشاب والزجاج والفخار وأدوات الزينة والعطور؛ فعمل المسلمون على تطويرها بحيث وصلت هذه الصناعات وغيرها إلى درجة متقدمة.

كما عمل المسلمون على الاهتمام بالنشاط التجارى، وخاصة أن موقع مصر الجغرافى ساعد كثيرا على ذلك النشاط، وفى نفس الوقت أعاد عمرو بن العاص حفر الخليج الذى كان يربط بين نهر النيل والبحر الأحمر، وسمى هذا الخليج باسم خليج أمير المؤمنين، وقد سهل هذا الخليج نقل البضائع إلى البحر الأحمر ثم إلى الشرق الأقصى، وساعد على تنشيط تجارة الشرق بصفة عامة. وتذكر بعض المصادر أن سبب حفر هذا الخليج هو ما أصاب بلاد الحجاز من قحط عام الرمادة فى العام الثامن عشر للهجرة، فأمر عمر بن الخطاب عامله على مصر عمرو بن العاص بحفر هذا الخليج حتى يسهل نقل المؤن من مصر إلى الحجاز.

وخلاصة القول أنه كان لاهتمام المسلمين بكل من الزراعة والصناعة والتجارة أثره فى ازدهار الأحوال الاقتصادية بمصر بعد الفتح الإسلامى لها.

ومن الجدير بالذكر أنه بعد الفتح الإسلامى لمصر ظهرت بمصر حضارة ذات خصائص جديدة، كان عمادها الدين الإسلامى واللغة العربية، وأخذت الحضارة المصرية القديمة تذوب بالتدريج فى ظل العقيدة الجديدة واللغة الجديدة، وهى المرة الأولى التى بدأت فيها الحضارة المصرية القديمة فى التراجع أمام أى غزو حضارى وفد على مصر، فقد سبق للفرس أن استولوا على مصر لكن دون أن يؤثروا على الحضارة المصرية، وكذلك استولى الرومان على مصر وظلوا بها لأكثر من ستة قرون، ورغم ذلك احتفظت مصر بتراثها وحضارتها، حتى كان الفتح الإسلامى حيث أخذت الحضارة المصرية تنصهر بالتدريج فى ظل الدين الجديد واللغة الجديدة لتظهر بها حضارة جديدة هى التى نطلق عليها اسم الحضارة الإسلامية.





أولا ـ المصادر:

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ ابن الأثير (ت. ٦٣٠هـ) أبو الحسن على بن محمد

أسد الغابة فى معرفة الصحابة. بيروت ١٩٨٩.

٣ ـ ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ) شهاب الدين أحمد بن على

الإصابة فى تمييز الصحابة. كلكتا ١٨٥٣

٤ ـ ابن الخياط (ت. ٢٤٠هـ) أبو عمرو بن أبى هبيرة

تاريخ ابن الخياط. بيروت ١٩٧٧م

٥ ـ ابن دقماق (ت ٨٠٩هـ) إبراهيم بن محمد بن أيدمر

الانتصار لواسطة عقد الأمصار. بولاق ١٣١٠هـ

٦ ـ ابن سعيد الأندلسى (ت ٦٨٥هـ) على بن موسى

المغرب فى حلى المغرب القاهرة ١٩٥٣م.

٧ ـ ابن عبد الحكم (٢٥٧هـ) عبدالرحمن بن عبد الله

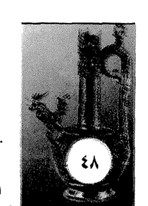
مصر والمغرب. القاهرة ١٩٦١.

٨ ـ ابن العبرى (ت ٦٨٥هـ) أبو الفرح بن هرون

تاريخ مختصر الدول. لبنان ١٩٨٣.

٩ ـ ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) أبو عبد الله محمد بن أبى بكر

أحكام أهل الذمة. بيروت ١٩٦١.



١٠ ـ ابن المقفع (ساويرس)

سـير الآباء البطـاركة منشـور فى Patrologia Orientalis, vol I, paris 1904.

١١ ـ أبو الفدا (ت٧٣٢هـ) عماد الدين إسماعيل

المختصر فى أخبار البشر. القاهرة ١٣٢٥هـ.

١٢ ـ أبو المحاسن (ت ٨١٣) جمال الدين يوسف بن تغرى بردى

النجوم الزاهرة فى محاسن مصر والقاهرة. القاهرة.

١٣ ـ أبو يوسف (١٨٢هـ) يعقوب بن إبراهيم

كتاب الخراج. القاهرة ١٣٩٦هـ.

١٤ ـ البلاذرى (٢٧٩هـ) أحمد بن يحيى بن جابر

فتوح البلدان. القاهرة ١٩٥٦م.

١٥ ـ الطبرى (٣١٠هـ) أبو جعفر محمد بن جرير

تاريخ الرسل والملوك. القاهرة ١٩٧٧م

١٦ ـ السيوطى (ت٩١١) جلال الدين عبد الرحمن

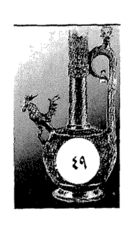
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة. القاهرة ١٩٦٧.

١٧ ـ القفطى (٦٤٦هـ) جمال الدين على بن يوسف

إخبار العلماء بأخبار الحكماء. القاهرة ١٣٢٦.

١٨ ـ القلقشندى (ت ٨٢١ هـ) أبو العباس أحمد

قلائد الجمان فى التعريف بقبائل غرب الزمان. القاهرة ١٩٦٣ م.



١٩ ـ الكندى (ت٣٥٠هـ) أبو عمر محمد بن يوسف

كتاب الولاة والقضاة، بيروت ١٩٠٨.

٢٠ ـ الماوردى (ت٤٥٠هـ) على بن محمد بن حبيب

الأحكام السلطانية والولايات الدينية. القاهرة ١٩٧٨.

٢١ ـ المسعودى (٣٤٦هـ) أبو الحسن على بن الحسين

مروج الذهب ومعادن الجوهر. بيروت ١٩٨٣.

٢٢ ـ المقريزى (٨٤٥هـ) تقى الدين أحمد بن على

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. بولاق ١٢٧٠هـ.

٢٣ ـ الواقدى (ت ٢٠٧هـ) محمد بن عمر بن واقد

كتاب المغازى. لندن ١٩٦٦.

٢٤ ـ ياقوت (ت ٦٢٦هـ) شهاب الدين أبو عبد الله الحموى

معجم البلدان بيروت ١٩٦٨.

٢٥ ـ اليعقوبى (ت٢٨٢هـ) أحمد بن أبى يعقوب

تاريخ اليعقوبى. بيروت.

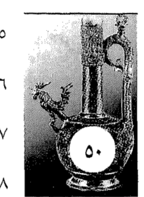
ثانيا ـ المراجع العربية:

١ ـ إبراهيم نصحى: تاريخ مصر فى عصر البطالمة. القاهرة ١٩٦٥.

٢ ـ أيدرس بل: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى. بيروت ١٩٨٨.

٣ ـ أحمد أمين: فجر الإسلام. القاهرة ١٩٨٢.

٤ ـ أحمد أمين سليم: حضارة الشرق الأدنى القديم. بيروت ١٩٩٢.



٥ ـ السيد الباز العرينى: الدولة البيزنطية. بيروت ١٩٨٢.

٦ ـ الفريد بتلر: فتح العرب لمصر. القاهرة ١٩٩٠.

٧ ـ جمال الدين سرور: الحياة السياسية فى الدولة العربية. القاهرة ١٩٦٠.

٨ ـ جمال الدين سرور: قيام الدولة العربية. القاهرة ١٩٦٤.

٩ ـ جمال الشيال: الإسكندرية طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر. القاهرة ١٩٥٥.

١٠ ـ جورج بوزنوو: معجم الحضارة المصرية القديمة. القاهرة ١٩٩٦.

١١ ـ جوستاف لوبون: حضارة العرب. القاهرة ١٩٦٩.

١٢ ـ حامد زيان: الأزمات الاقتصادية والأوبئة فى مصر. القاهرة ١٩٧٦.

١٣ ـ حسنين ربيع: دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية. القاهرة ١٩٨٣.

١٤ ـ حسين مؤنس: الإسلام الفاتح. القاهرة ١٩٨٧.

١٥ ـ سعاد ماهر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون. القاهرة ١٩٧٣.

١٦ ـ سيد الناصرى: الشرق الأدنى فى العصر الهلنستى. القاهرة ١٩٩٦.

١٧ - طه الولى: المساجد فى الإسلام. بيروت ١٩٨٨.

١٨ ـ عبد اللطيف أحمد على: مصر والإمبراطورية الرومانية. بيروت ١٩٨٨.

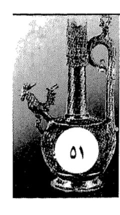
١٩ ـ لطفى عبد الوهاب: دراسات فى العصر الهلنستى. بيروت ١٩٨٨.

٢٠ ـ ليلى عبد الجواد: الدولة البيزنطية فى عصر الإمبراطور هرقل. القاهرة ١٩٨٥.

٢١ ـ محمد رمزى: القاموس الجغرافى. القاهرة ١٩٩٤.

٢٢ ـ مصطفى شيحة: دراسات فى العمارة والفنون القبطية. القاهرة ١٩٨٨.

٢٣ ـ مصطفى العبادى: العصر الهلنستى فى مصر. بيروت ١٩٨٨.

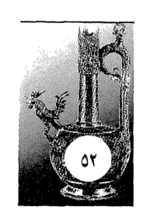


ثالثا ـ المراجع الأجنبية:

1 - Ostrogorvowski (c) History of the Byzantine state, (oxford, 1956)

2 - Stephenson (c): Mediaval history (New York, 1943)

3 - Vasiliev (A): The Byzantine Empire (madison, 1953).


٥٢


المحتويات



This work handles the history of the Arab conquest of Egypt in an objective approach. The author refutes the claims of some orientalists and their prejudiced verdicts regarding the spread of Islam. The book highlights that the events of the conquest were based on mutual agreement and not force.

The issue of the burning of the Bibliotheca Alexandrina is equally handed to prove that Amr Ibn El-As is completely innocent of this charge.

The Copts have enjoyed religious freedom under the Arab rule, after being harassed and persecuted for centuries by the Byzantine Empire. Further more, there are details about the different constructions in Egypt. Including the establishment of the new capital of "Fustat", the magnificent mosque, and the planning of the Giza area. Arab accomplishments in the spheres of agriculture, industry, and commerce are equally highlighted.

Dr. Hamid Zayan



History is the most esteemed branch of human knowledge, thus a historian should abide by the virtue of objectivity, foresight and the readiness to learn from the lessons of the past in order to confront present and future challenges.

History is not a kind of tell-tale, rather it is the morale lying behind events and happenings. History again has a wonderful trait which is "continuum" from the past to the present, and ventures of the future.

Episodes of history are transformed from one generation to the other via the narrative which preserves the accomplishments of each and every historical epoch.

However, history does not in any way repeat itself, for every day there is something new and dynamic in our globe. It is true that the stage for events remains the same, but seasons change and the human being himself does change, socially and culturally as well.

In view of all these considerations, Dar El-Fikr-EL-Arabi, founded by Mr. Mohamed Mahmoud El Khodari, has taken on itself to foster this colossal project of a historical serial involving past, present, and contemporary records from a universal approach.

It is noteworthy that the authors of this serial are from the elite of the Egyptian historians.

We sincerely hope that the recipient will enjoy reading the volumes of this serial for which Dar- El-Fikr has devoted all its efforts and technologies to produce it in this colorful format.

Dr. Said Abdel Fattah Asshour

CONSULTATIVE COMMITTEE FOR:
THE ENCYCLOPAEDIA OF HISTORY, ARCHAEOLOGY AND CIVILIZATION

Correspondence & Communications:

Dar El-Fikr El - Arabi

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

94 Abbas Al-Akkad St., Nasr City - Cairo - Egypt

Tel.: 22752984 Fax: 22752735

www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

Islamic History

11

The Islamic Conquest of Egypt



Dr. Hamid Zayan

Publisher

Dar Al-Fikr Al-Arabi

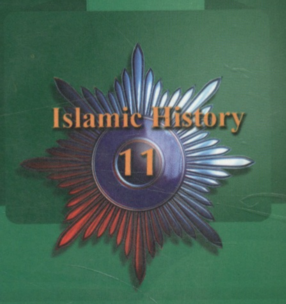
94 Abbas El - Akkad St. Nasr City - Cairo

tel : 22752794 . Fax : 22752735

www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com

The Encyclopedia of History, Archaeology and Civilization



The Islamic Conquest of Egypt



